فقل لى بربك : ماذا يكون الحال ، لو أننا أردنا أن نوازن بين حالة المسلمين اليوم ، وبين حالتهم بالأمس ؟ وماذا تكون النتيجة الواقعية لهذه الموازنة يا ترى ؟

إننا نعتقد أن أى مسلم ينطوى ضميره على أقل ذرة من الإنصاف والمعدلة ، سيشعر بالخجل العميق من نتيجة هذه الموازنة ؛ لأن حالتنا اليوم ، تكاد تكون فى جملتها وتفصيلها على النقيض من حالة أسلافنا الأماجد ؛ فالنفوس ضعيفة ، والهمم كليلة ، والعزائم فاترة ، وسوق العلوم بائرة ، وحركة النشاط فيها خامدة ، والوازع الدينى مفقود ، والاعتصام بمبادىء الاسلام منعدم ، والأخلاق الاسلامية لا أثر لها فى بيئاتنا المختلفة ، والتنشئة الدينية لا تسلم فى أوساطنا من السخرية والتمـــد .

وياليت الأمر قد وقف بنا عند هذا الحد ، بل لقد تعداه الى أن شاعت بيننا أمراض خلقية فتاكة ، وتفشت فينا آفات اجتماعية وبيلة ، وتمكنت فى نفوسنا عادات مرذولة ، وموروثات فاسدة : وإذا لم يتداركنا بلطفه ، فستنزل بنا الطامة وتحل بنا الكارثة .

ولكن ، هل معنى هذا أننا نيأس من العلاج ، وأننا نقطع الأمل فى استعمال الدواء الناجع ؟ كلا ، فإن هذا لا يليق بشعوب عريقة فى المجد ، ولا يجمل بأمم أصيلة فى المعالى ، ولا يتفق وما جاء به الإسلام من دعوة الى العمل فى الدنيا بالجد والكد ، والهمة والنشاط ، ومن أنه دين المدنية والعمران ، واليقظة والنهوض ؛ إنما يجب — درءاً لكل تلك المفاسد التى عليها المسلمون الآن — أن تكون النواة الأولى التى نضعها لإنهاض المسلمين من غفوتهم ، وإقامتهم من كبوتهم ، وإيقاظهم من رقدتهم ، هى أن نرجع بهم الى حظيرة الإسلام ، وأن نعود بهم الى تعاليمه الصحيحة ، وأن نربيهم على مبادئه القويمة ، وأن نغرس فى نفوسهم أن آدابه وفضائله هى التى يجب أن تكون الهدف الأول لهم فى كل ما يصدر عنهم من أعمال وأفعال ، وأن نجعل الروح الإسلامى هو السائد فى جميع معاملات المسلم ؛ فتكون معاملته لربه بمراقبته فى السر والعلن ، وقيامه بفعل المأمورات ، وترك المنهيات وتكون معاملته لنفسه باختياره الأصلح والأنفع لها فى أمور الدين والدنيا ؛ وتكون معاملته للخلق برعاية الأمانة فى كل ما يتصل بهم ، ويرتبط بحقوقهم ؛

فيجب أن يكون الرعاة أمناء مع رعيتهم فيما وكل اليهم من أداء الأمانات ، ورد الظلامات ، والعدل فى الحكومات ؛ ويجب أن يكون العلماء أمناء مع الناس بأن يرشدوهم الى الاعتقادات والأعمال النافعة لهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يجنبوهم التعصبات الباطلة ، والمذاهب الفاسدة ؛ ويجب أن يكون الآباء والأبناء والأزواج والأقرباء والأصدقاء أوفياء بعضهم لبعض ، وأمناء فى الحقوق المطلوبة من كل منهم نحو الآخر .

وهكذا يجب أن تسيطر الأخلاق الاسلامية على كل حركة من حركاتنا ، وأن تتمثل فى كل تصرف من تصرفاتنا ؛ فانه لا تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وإنه لا يستقيم لها حال ، ولا يعظم لها شأن ، إلا إذا اهتدت بهدى الإسلام ، واسترشدت بوصاياه وحكمه ؛ وفى هذا يقول القرآن الكريم : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » . ويقول الرسول الأعظم : « تركت فيكم أمرين ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنة نبيه » .

فان نحن نجحنا فى هذه الخطة ، وأخذنا بها أنفسنا ، واستطعنا أن يكون لها السلطان الروحى فى بيئاتنا وأوساطنا الخاصة والعامة ، فان المسلمين - ولا ريب - سينهضون نهضة قوية مباركة ، يكون لها أبعد المدى ، وأكبر الأثر فى محيط الإنسانية العام .

حقيقة الكرم

قال حاتم الطائى :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ... ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب

تحقيقات

حول عقيدة ابن رشد

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

تمهيد :

اجتازت الفلسفة الإغريقية بغداد ومصر وسوريا إلى بلاد الأندلس، تحدق بها شروحها وتوجيهاتها، وتحليلاتها وإجلالها، ونقدها ومهاجماتها، فكان إزهارها فى بلاد المغرب هو أوان ذبولها وتدهورها فى المشرق؛ ولكن يبدو أن فلاسفة الأندلس قد أغضوا عن مجهودات أسلافهم الشرقيين فى إيضاح الفلسفة الإغريقية، أو حرصوا على الأقل على أن يظهروا بهذا المظهر، فلم يعرضوا ـ فى مجموع آرائهم ـ لمنتجات أولئك الأعلام الشرقيين إلا بالنقد والتجريح، ورميهم بعدم الفهم تارة وبالتدليس أو بمجاملة الجماهير تارة أخرى.

ولقد كان من نتائج هذا النهج الذى انتهجه هؤلاء المفكرون بازاء أسلافهم أن اقتنع بعض مؤرخى الحركة العقلية فى المشرق بأن إنتاج المغربيين يمكن أن يعتبر سلسلة أجنبية عن إنتاج أسلافهم، فأهملوهم فى مؤلفاتهم عن عمد، بل عن سبق إصرار. وإذاً، فلم يكن سطوع أسمائهم نتيجة لمجهودات المؤرخين الشرقيين، وإنما كان الفضل فيه للمدرسيين من الأوروبيين الذين تأثروا بهم تأثرا عميقا. ومن آيات ذلك أن ابن جبيرول كان فى القرن الثالث عشر أحد المنابع الأساسية للأفلاطونية الحديثة، وفى الوقت عينه صار مذهبه أعظم المذاهب التى طبعت الفرانسيكانيين بطابعها؛ وأكثر من هذا أن ابن رشد كان له ـــ فى فلسفة العصور الوسيطة ـــ أثر بلغ من العظم حدا جعل كل باحث يشعر بأن الضرورة تقضى

عليه بأن يخصص بين منتجات تلك البيئة فى هاتيك العصور فصولا مسهبة . ولقد أطلق الباحثون المحدثون على هـــذا الجانب من مـذهب ابن رشد اسم الرشدية اللاتينية " Avcrroïsme latin " وهم يعنون بذلك تلك الحركة التى بدأت تنمو وتنتشر فى جامعتى باريس وبادوا منذ القرن الثالث عشر والتى ظلت زاهرة متلألئة فى هذه الجامعة الأخيرة إلى عهـد النهضة كما سنبين ذلك فى موضعه ، وليس ذلك فحسب ، بل إن القـديس توماس — رغم مهاجماته إياه — كان يدعوه أعظم شراح أرسطو على الإطـلاق . وقد تأثر به إلى حـد أن استعار فى مؤلفه العظيم نفس الصور التى ابتكرها ابن رشد فى شروحه لأرسطو [1]

وإذاً ، فقد تبين مما تقدم أن مصادر المعرفة الحقة للفلسفة الأندلسية توجد فى المغرب أضعاف وجودها فى المشرق ، وأن من الوفاء للعلم عامة ولهذا الجانب من جوانب الإنتاج الفكرى خاصة ، أن تتعقب هذه الفلسفة — ولكن دون أن نهمل مصادرها المباشرة من كتب أصحابها — فى مؤلفات الأوروبيين غير مبالين بما عسى أن يقال من أننا اعتمدنا على مصادر دخيلة ، فإن ذلك سيكون من جانب القائلين به لونا من ألوان التجنى ، إذ أن أولئك الباحثين الغربيين هم ورثة المنتجات المغربية عامة ، والتراث الرشدى خاصة ، عن طريق اللغتين : العبرية واللاتينية اللتين ترجمت إليهما مؤلفات هـؤلاء الأعلام إبان محنة الفلسفة ، ومن ثم لا ينبغى أن تصرفنا العصبية عن تعقب الحقائق فى مواطنها ، لأن العلم لا وطن له .

ولا جرم أن هذا التصميم يحملنا على أن نتعقب بدءا ما كتبه أولئك الباحثون عن عقيدة ابن رشد ، وما وصلوا اليه من نتائج فيما يتعلق بإيمانه مستنبطين تلك الأحكام من رأيه فى الدين صراحة أو تلميحا . ولقد عثرنا فى الشرق والغرب الإسلاميين وفى العصور الوسيطة المسيحية على أحكام لعدد وافر من العلماء والمفكرين أصدروها على هذا الحكيم ، وفيها من التباين والتضارب ما لا يعلم مداه إلا الله : ففريق يرتفع به الى السماء ، وآخر يهوى به الى الأرض ، وثالث

---

(1) P. Palhoriés, Vies et doctrines des grands philosophes, t. II, p. 59.

يرى أنه مؤمن قوى الإيمان ، ورابح يعلن أنه فى طلائع الملاحدة والزنادقة ، بيد أنه لما كان مبعث هذه الآراء إما التعصب وضيق الصدر من حكم العقل ، وإما الجهل والتحيز ، فقد شئنا أن نضرب عنها كلها صفحا مكتفين بآراء العلماء المحدثين ، لأنها كانت نتيجة خالصة لبحوث عقلية ، وثمرة بريئة لتأملات فكرية ، وبالتالى لا يمكن إغفالها أو التغاضى عنها ، وإن كان هذا ليس معناه أنها سلمت من الهفوات ، كلا ، بل هى مشتملة على كبوات ، وسوف نشير الى مافيها من انحراف عن جادة الصواب ، ولكننا على يقين من أن ما فيها من هنات ليس ناجما فى مجموعه عن تحامل أو عن سوء قصد ، لأننا نعرف عن أكثر أولئك القوم فى غير هذا الموضع ما يرفعهم فى نظرنا الى مرتبة الأبرياء الذين لا يألون عن الحق إلا عجزا أو قصورا ، ولله وحده الكمال .

والآن إليك آراء أولئك الباحثين . فاستمع إليها برحوبة صدر حتى تنتهى منها ، ليتيسر لك نقاشها فى جو علمى مفعم بالهدوء .

رأى رينان :

أعلن إرنست رينان فى كتابه « ابن رشد والمدرسة الرشدية » أن هذا الفيلسوف باحث حر الفكر إلى حد بعيد ، وأنه لايتقيد فى بحوثه بدين ولاعقيدة ، وأن لادينيته صريحة فى كثير من مؤلفاته ولا سيما فى شرحه لجمهورية أفلاطون ، وهذا يدل على أنه عقلى محض ، وفيلسوف نقى ، لم يشغل نفسه بأولئك الدينيين المكبلين ، بل كان يفلسف بحرية : نعم إنه لم يتعمد أن يصطدم بالدين ، ولكنه لم يحاول كذلك أن يزعج نفسه ، ليتجنب الاصطدام به [1] » .

قد يتبادر إلى ذهن الباحث على أثر مطالعته عبارات رينان السالفة أنه لا علم له بتلك المؤلفات التى كتبها ابن رشد ، ليوفق فيها بين الفلسفة والدين والتى طالما شغل نفسه فيها بالمتكلمين ، وحاول جهد طاقته أن يتجنب الاصطدام بالدين : ولكنه إذا أمعن فى كتاب رينان تبين أنه يعلم هذه المحاولة من جانب ابن رشد ، وأنه يعللها بعلتين : إحداهما حرصه على حياته ، وثانيتهما الرحة التى استولت على

(١ و ٢) انظر الصفحة ١٢٩ وصفحة ١٦٤ وما بعدها الى صفحة ١٧٣ من كتاب « ابن رشد والرشدية » .

نفسه فجعلته يتجنب إيلام الجماهير بالطعن فى عقيدتها ، وفى هذه الخطة من جانبه برهان ناصع على سعة عقله وخلوه من التعصب (١) .

لا ريب أن فى هذه الدراسة الرينانية شيئا من الحقيقة وإن كانت لم تصل إلى إيضاح الخطة الرشدية الصحيحة ، ولا إلى إبانة الأسباب الحقيقة التى حدت فيلسوفنا إلى سلوك هذا النهج ، ولكن عذر رينان فى هذا التقصير واضح وهو أنه لم يطلع على النصوص الرشدية العربية أو على ترجمة دقيقة لها ، بل إن كل ما وصل إليه منها هو بضع شذرات من « تهافت التهافت » باللغة اللاتينية ، وملخصات ترجمها الأستاذ مانك عن اللغة العبرية ، وهذا لا يمكن الباحث من إصدار حكم موثوق به على المؤلف ، وفوق ذلك فإن رينان كان لادينيا وكثيرا ما هاجم المسيحية بألذع العبارات ، ومن ثم هو مشغوف بتصيد زندقات من الهواء ونسبتها إلى من يكتب عنهم من المفكرين ، وقد صيرت هذه الخطة مؤلفاته غير معتبرة فى البيئات العلمية .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

رأى مانك :

قرر مانك أن ابن رشد — بالرغم من أن آراءه الفلسفية لا تكاد تتفق مع عقيدته الدينية — كان يعنى كثيرا بأن يكون مسلما حسن الإسلام (١) . وقد استنتج مانك هذا الحكم مما رآه فى نصوص ابن رشد من اعتنائه بالتدليل على أن الدين والفلسفة يدعوان إلى حقيقة واحدة .

ومما لا شك فيه أن الأستاذ مانك قد لاحظ أن هذا تناقض من جانب ابن رشد ، وعذره فى عدم إدراكه حقيقة هذه المسألة واضح كذلك ، وهو أن نصوص فيلسوف قرطبة لم تصل إليه على حقيقتها .

رأى دونكان ماكدونالد :

شرح ماكدونالد بأن ابن رشد قد تعهد فى كتاب « تهافت التهافت » أن

---

(١) انظر صفحة ٤٥٤ وما بعدها من كتاب « مزيج من الفلسفتين العبرية والعربية »

يضع نقابا سميكا على زندقته ، أما رسائله التى زعم أنه أراد بها التوفيق بين الفلسفة والدين ، فهو لم يدع فيها نافذة مفتوحة أمام فلسفته الحقيقية (١) .

ومعنى هذه العبارة أنه كتب هذه الكتب الدينية ليتقى بها سخط المسلمين ، ثم أقفل أبوابها فى وجه الأفكار الفلسفية الحقيقية ، ولم يدع فى داخلها مجالا إلا للآراء العامية .

رأى ت . ج دى بوير :

ذهب دى بوير فى كتابه الأول ، تناقضات الفلسفة ، الذى نشره فى سنة ١٨٩٤ الى أن ابن رشد باحث عقلى ممتنع بآرائه ، وأن التناقضات المقصودة التى ظهرت فى كتبه لم تكن إلا سخرية بسيطة من لدن عالم يحتقر العامة ولا يأبه للوسائل التى يسلكها لتحويل اتهامات الجماهير الغبية عن نفسه ، فهو مثلا حين يعرض لمسألة خلود النفس يقرر أنها ليست فى متناول الفكر البشرى ، على حين أنه لا يعتقد هذا ، بل هو ممتنع بأن العقل الإنسانى قدير على بحث هذه المسألة (٢) .

أما فى كتاب « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » الذى نشره فى سنة ١٩٠١ فهو لم يعد الى البحث فى هذه المسألة ، بل تجاوزها فى غير اكتراث ، كأنها لا تعنى الباحث ، أو كأنه عدل عن رأيه فيها ولم يشأ أن ينبه القراء الى هذا العدول .

ليس من الغريب أن يكون « دى بوير » فى كتابه الثانى قد عدل عن آرائه التى قررها فى كتابه الأول ، لأن عددا من الباحثين المتأخرين فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى قاموا ببحوث هامة حول هذا الموضوع اعتمدوا فيها على نصوص ابن رشد العربية ، وكان من نتائجها أن ضعفت الآراء القديمة القائلة بنفية ابن رشد أو بسخريته من جماهير المسلمين .

ومن أشهر العلمـــاء الذين قاموا بهذه البحوث الأساتذة : ا . ف . ميرين ، وميجيل أزين ، وليون جوتييه . وسنطوف معك فى الكلمة الآتية بنبذ من آرائهم ، فإلى الملتقى ؟

---

(١) انظر صفحة ٢٧٦ من كتاب « نمو علمى التوحيد والفقه الاسلاميين » لما كدونالد طبعة لوندره سنة ١٩٢٣ .

(٢) راجع صفحة ٩١ من كتاب « تناقضات الفلسفة » تأليف بوير .

أسباب تأخر المسلمين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

عرضت فى مقالى السابق تحت هذا العنوان بمجلة الأزهر (عدد صفر) للموضوعات الآتية :

١ — ضعف المسلمين فى العصور الأخيرة ، وتأخرهم فى ميدان الحضارة ، على حين تقدم غيرهم .

٢ — بيان أن هذا التأخر لا يصح أن يعزى الى طبيعة الاسلام ، لأنه دين الحضارة والمدنية الصحيحة ، ولا الى طبيعة المسلمين أنفسهم ، لأنهم لا يختلفون عن أسلافهم الأماجد عقولا وأفهاما .

٣ — نتيجة ما ذكر ، وهى أن هذا التأخر إنما جاءهم من عوامل خارجية وأسباب طارئة ، أثرت تأثيرا سيئا فى حياتهم الدينية والدنيوية ، وأخرتهم عن بعض الأمم فى مضمار الحضارة والتقدم والرقى ! .

وهذا بيان الأسباب بالتفصيل ، وقد رأيت أن أقسمها الى ثلاث درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة .

أسباب التأخر من الدرجة الأولى :

أهم هذه الأسباب ما يأتى :

١ — عدم تيقظ المسلمين وسائر العرب للدسائس الخفية والمكايد الخبيثة المهلكة ، التى مصدرها من قديم المنافقون من المشركين واليهود ، ومن أسلم من بعض الأعاجم الوثنيين والرومبين الذين ملأ الحقد على الاسلام صدورهم ، وعششت البغضاء بين جوانحهم ، وباضت حاقد الترات العصبية والدينية فى أبراج نفوسهم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ! ..

هؤلاء الذين أشرت إليهم فى كلامى أمثال عبد الله بن أبى ابن سلولَ ، رأس المنافقين فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم : ثم عبد الله بن سبأ ، وكعب الاحبار ، ووهب بن منبّه من اليهود ، وأبو عبيدة معمر بن المثنىّ التيمىّ بالولاء ، اليهودى الأصل ، الذى اشتهر ببغض العرب : وفيروز أبو لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة ابن شعبة ، وزياد ابن سُمية أو ابن أبيه ، وغير هؤلاء من الرافضة والخوارج ، وكثير من الموالى الذين دخلوا فى الاسلام أو تظاهروا به ولم يكن لهم غرض إلا الوقيعة بالمسلمين وبالعرب جميعا ! وأغلب هؤلاء الكائدين للإسلام وأهله من اليهود والمشركين . وقد صدق الله العظيم حيث يقول « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا » فإن الواقع والتاريخ حققا صدق هذا الكلام الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! » .

ولنوضح الآن كيف كان عدم اليقظة لدسائس من ذكرنا سببا جوهريا من أسباب تدهور المسلمين قديما ، وقد بقى أثره إلى عصرنا هذا !

تجمع من أعداء العرب المسلمين ثلاث جماعات من أخطر جماعات الشر والخبث والخديعة .

الأولى - جماعة اليهود المطبوعين على الشر وكراهية المسلمين ، لأنهم أصحاب الدين الجديد ، ولأنهم قتلوا أكابر اليهود الذين ناصبوا النبى وأصحابه العداء ، فحرضوا قريشا وغيرها من القبائل العربية على مناوأته ومحاربته ، قصدا الى إبطال دعوته وطمس شريعته : امثال كعب بن الأشرف ، وابن أبى رافع الملقب بتاجر أهل الحجاز : ولأنهم طردوا من بقى من اليهود على دينه فى عصر عمر رضى الله عنه .

الجماعة الثانية — المنافقون وأولادهم وحفدتهم من مشركى العرب ، الذين كانوا أضر بالاسلام من أعداء الاسلام ! والذين قال الله فيهم « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون » وكان على رأسهم عبد الله ابن أبى ابن سلول ، الذى هلك فى السنة التاسعة من الهجرة .

الجماعة الثالثة — مبغضو العرب من الموالى الذين دخلوا فى الاسلام بعد فتح فارس والروم ، كالخوارج والرافضة وعلى رأسهم زياد بن سمية .

نظمت تلك الجماعات أعمالها تنظيما سريا دقيقا محكما ، بحيث يتوارثه الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد ، ووضعت الخطط والبرامج للقضاء على الاسلام ومحو سلطان العرب ! وتذرعت فى سبيل تنفيذ غايتها النكراء بالدهاء والمكر والخديعة ، والتستر باسم الاسلام . وهذا النوع من خطط الجماعات السرية الضارة لم يكن للعرب عهد به ، لا فى جاهليتهم ولا فى إسلامهم ، لأن العرب معروفون بطهارة القلب ، وصراحة الضمير ، وخلوص النية : لذلك أمنوا مكر هؤلاء الدخلاء فى الدين وفى العروبة ، وائتمنوهم على الأرواح والأموال والأعراض ، حتى ولوهم الإمارات وقيادة الجيوش ، ولم يتخذوا الحيطة لمراقبة حركاتهم السرية الإجرامية ، التى نفذوها بكل حذق ومهارة ! وكلما انقرض من هؤلاء جيل خلفه جيل آخر ، يفوق سابقه فى المكر والدهاء وتلمس الحيل الشيطانية ، والوسائل الجهنمية ، حتى أتوا على بنيان الخلافة الاسلامية من قواعده ، وأصبحوا هم أصحاب الصولة والدولة ، وذوى الحكم والنفوذ فى أغلب بلاد العرب والاسلام !

والى القارىء طرفا من فعالهم الشنيعة ، وأحابيلهم الشيطانية ، ومؤامراتهم الهدامة :

المؤامرة الأولى :

قتل عمر بن الخطاب غيلة : بدءوا أولى مؤامراتهم الخطيرة بقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الخليفة الثانى بعد أبى بكر رضى الله عنهما ، لأنهم رأوه صعد بالعرب إلى قمة المجد فى زمن وجيز ، بعد أن طرد اليهود من الحجاز ، ودوخ ملوك كسرى والروم ، ففتح الأقطار واختط الأمصار ، وأقام العدل بين الناس ، وأخذ العرب يجتنون ثمار كدهم وجهادهم فى سبيل الله ، ويعيشون فى ديارهم وخارج ديارهم عيشة راضية عزيزة هنيئة رغيدة !

وقد غزل خيوط تلك المؤامرة ، وحاك نسجها ، وحبك أطرافها أبناء كسرى وقيصر ، الموتورون من عرب الإسلام فى عهد عمر بقتل آبائهم ، وتفويض ملكهم ، وأسر ذراريهم ونسائهم : وقد أعانهم على ذلك اليهود المطرودون من المدينة ، ومن أسلم منهم ومن المسيحيين واختار الاقامة بالمدينة : مثل كعب الأحبار الذى أعلن عن موت عمر قبل وقوعه بثلاثة أيام !! ومثل جفينة المسيحى

الذى استقدمه سعد بن أبى وقاص من الحيرة ليعلم أولاد العرب الكتابة والقراءة. وعلى الجملة فقد أحكمت حلقات هذه المؤامرة إحكاما باليا ، لأن أصحابها رأوا الفرصة سانحة لقتل عمر ، خشية اطراد نمو الإسلام وتقوية دعائمه بهذا الخليفة العادل الفاتح !

ولست الآن بصدد التحقيق فى كيفية مقتل عمر رضى الله عنه ، فان هذا الأمر قد تكفل به المؤرخون ، وإنما أريد أن أبين أطوار تلك المؤامرة التى تعد أكبر حدث فى تاريخ الاسلام ، إذ بنتيجتها فتح باب الشر على المسلمين والعرب ، ولم يغلق هذا الباب إلى وقتنا هذا . وقصدى بذلك أن ينتبه المسلمون والعرب إلى أمثال تلك المؤامرة ، فيقتلوها فى مهدها ، ويطهروا بلادهم ممن يشكون فى نياتهم من الدساسين والجواسيس ، أعداء الوطنية والدين والعروبة .

كيف دبرت المؤامرة ؟

أولا — استفاضت الأخبار عند أبناء فارس والروم أن عمر الخليفة لا يتخذ لنفسه حرساً كما يصنع ملوك العجم وقياصرة الروم ، للمحافظة على حياتهم من الاغتيال ، ولاظهار أبهة الملك وعظمة الحاكم .

ثانياً — أرسل كسرى رسولا من لدنه ليستيقن صحة هذه الأخبار ، فلما جاء رسوله المدينة أخذ يسأل عن مكان الخليفة فدل عليه ، فوجده فى المسجد نائماً على الأرض وليس معه حارس ولا حاجب ، فقال هذا الرسول (الجاسوس) قولته المشهورة : « عدلت فأمنت فنمت يا عمر ! » وتيقن أن هذه الكلمات وقعت عند العرب المسلمين موقع القبول والرضا ، لأنها تدل بظاهرها على تقدير عمر والإعجاب بخطته الرشيدة ، مع أنها تخفى وراءها أمرا خطيرا وشرا مستطيرا. ثم عاد الرسول إلى كسرى فأخبره بما رأى ، وشاع هذا الخبر فى أنحاء فارس ، فقوى عزمهم على الانتقام من عمر باغتيال حياته .

ثالثاً — من سوء حظ المسلمين فى ذلك الوقت أنه كان بالمدينة عاصمة الخلافة حفنة من عناصر السوء لم يأبه لهم أحد ، ولم يلتفت العرب إلى حركاتهم المريبة ، مع أنهم كانوا الرأس المفكر والعقل المدبر لهذه المكيدة الكبرى ، وهم : **الهرمزان أمير الأهواز الذى أسلم خوفا من السيف بعد أن نقض الصلح**

بينه وبين المسلمين مرارا ، وجفينة المسيحى الذى تقدم ذكره وفيروز أبو لؤلؤة المجوسى بطل هـذه المؤامرة ، الذى سبك الحيلة على سيده المغيرة بن شعبة والى الكوفة ، فجعله يستأذن عمر فى قدومه المدينة ، بدعوى الانتفاع بصناعاته المتعددة وهى الحدادة والنجارة والنقاشة . هذا هو الظاهر ، وفى الواقع هى الستارة التى تستر بها هـذا العلج لتنفيذ فعلته الأثيمة ، وجرمه الشنيع ؛ وكعب الأحبار اليهودى الأصل الذى استتر باسم الإسلام ، وكان على علم بتدبير المؤامرة ، إن لم نقل إنه رأس المتآمرين وكبيرهم الآمر الناهى .

اجتمع هؤلاء الرهط ورأوا الفرصة قـــد سنحت تماما لاغتيال الخليفة ، فأوعزوا الى من وقع عليه الاختيار لتنفيذ الجريمة ، وهو فيروز المجوسى ، ن يشكو سيده المغيرة الى عمر ليخفف عنه ما كلف به من المال ، لأنه يبهظه ولا يقدر على أدائه . فسأله عمر عن صناعاته ، فقال فيروز (حداد . نجار . نقاش) فقال عمر : ليس ما طلب اليك أداؤه بكثير ، فانصرف أبو لؤلؤة وهو يتوعد عمر !!

رابعا — لم تكن شكوى أبى لؤلؤة الى عمـــر إلا ستارا كثيفا يخفى وراءه ما قصده هذا اللعين ، وهو التثبت من معرفة شخص عمر ، حتى لا يخطئه فيقتل غيره ، وقد فعل ذلك بعد أن أعيته الحيل فى سبيل الوصول الى التمكن من رؤية عمر ، لأنه بحكم دينه المجوسى ممنوع من حضور مجالس الخليفة التى كانت تعقد غالبا فى المسجد ؛ لذلك تظاهر بالشكوى ، لعلمه بأن عمر لا يرد شاكيا كائنا من كان .

خامسا — جاء دور التنفيذ ، فصنع أبو لؤلؤة خنجرا له طرفان ، نصابه فى وسطه. وعين المتآمرون يوم القتل وساعته ، وهو اليوم السادس والعشرون من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ وقت صلاة الصبح ، وفى فجر هذا اليوم كان عمر رضى الله عنه يوقظ الناس للصلاة ، ثم حضر المسجد وأقيمت الصلاة ، فسوى الصفوف على عادته ، ثم كبر تكبيرة الإحرام ، ولم يكد يشرع فى القراءة حتى طعنه أبو لؤلؤة المجرم الأثيم عدة طعنات إحداهن تحت السرة ، وهى التى أنفذت مقاتله ـ رضى الله عنه ـ وقضت عليه ، ثم مر القاتل بين الصفوف فطعن ثلاثة عشر من المسلمين ، مات منهم سبعة ، ثم قتل هـذا الملعون نفسه بيده . وبقتل عمر ختمت حياة بطل عربى اعتز بالإسلام . ولا يسعنى بعد هذا إلا أن أقول :

إن القلب ليتفطر حزنا ، وإن النفس لتتحرق كمدا ، وإن العين لتكاد تبكى دما لفقدك يا أمير المؤمنين ! !

ولو شئت أن أبكى دما لبكيته عليه ولكن ساعة الصبر أوسع !

هذا ، والعاقل المنصف لا يشك فى أن قتله رضى الله عنه كان نتيجة حتمية لتساهل المسلمين فى التحرى والتدقيق الواجبين فى شأن من يشك فى حسن نيتهم ممن عرفت عداوتهم ، وبدت عليهم مخايل الخبث والدهاء .

نعم : إن هذا قضاء الله الذى لا مرد له ، والذى أشار إليه النبى عليه السلام فى حديثه (١) قبل وقوعه : ولكن هذه العقيدة لا تتنافى مع الأخذ فى الأسباب واستعمال الحذر ، لعدم علمنا بما قدره الله فى المستقبل ، ثم يكون بعد ذلك مايكون . فترك اليقظة وعدم التنبه لحركات العدو تقصير لا ينبغى أن يكون ؛ وقديما قال العربى الحكيم : حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ؟

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

---

(١) الحديث المشار إليه رواه البخارى ومسلم فى (كتاب الفتن) . ورواية البخارى أخصر . وهاهى ذى :

« عن شقيق قال : سمعت حذيفة يقول : بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال : أيكم يحفظ قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الفتنة ؟ قال : فتنة الرجل فى أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال : ليس عن هذا أسألك ، ولكن التى تموج كموج البحر ! قال ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين . إن بينك وبينها بابا مغلقا . قال عمر : أيكسر الباب أم يفتح ؟ قال بل يكسر . قال عمر : إذاً لا يغلق أبدا . قلت أجل . قلنا لحذيفة : أكان عمر يعلم الباب ؟ قال نعم ، كما أعلم أن دون غد ليلة . وذلك أنى حدثته حديثا ليس بالاغاليط . فهبنا أن نسأله من الباب ؟ فأمرنا مسروقا فسأله فقال من الباب ؟ قال : عمر ... انتهى الحديث . واقول : الفتنة التى أشار إليها الرسول عليه السلام هى فتنة قتل عثمان وعلى والحسين رضى الله عنهم ، وكسر باب الفتنة كناية عن قتل عمر رضى الله عنه .

التقليد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى

شيخ معهد أسيوط

لا أريد أن أتناول هذه الكلمة بالبحث على طريقة الفقهاء والمشرعة فأبين أن مذهب المقلد مذهب مفتيه أولا ، ولا بلسان المتكلمين فى العقائد فأدلل على أن إيمان المقلد مقبول أو غير مقبول ؛ وإنما أريد معالجة بحثها من ناحية أنها مسلك من مسالك الأفراد والجماعات فى هذه الحياة ، وأنها صفة من صفات الناس وحال من أحوالهم فى سلوكهم بعضهم مع بعض ، وأنها بهذا الاعتبار قد تكون خيرا محضا إذا كانت تسابقا فى الخيرات ، وتنافسا فى صنوف البر ، وترسما للمثل العليا فى نواحى الحياة وما يعرض للجماعات من مشاكل ؛ وعندئذ نرى الدين يشرح لها صدره ، ويشد أزرها ، ويقوى دعائمها ، ويحبوها عطفه ورضاه ، فنراه يكثر من الحث عليها ويتفنن فى إغراء الناس بسلوك طريقها واتباع منهجها بشتى الطرق والأساليب ، لأنها إذ ذاك تسير بالأمم الى ما يليق بها من مجد وفخار .

وتارة تكون شرا محضا إذا كانت محاكاة للمفسدين ، وتقليدا للضلين ، وتشبها بالأشرار المجرمين ، فتكون همزة الوصل الى الدمار ، وتثير على الأفراد والجماعات الزعازع ، وتقض منهم المضاجع ، وتصبح وسيله قريبة لانهيار الأمة وتلاشى سلطانها فى وقت وشيك . وعندئذ تكون فى نظر الدين سبة فى جبين الانسان الذى وهب العقل فلم يحكمه ولم يهتد بهديه ، ووصمة عار لذلك الانسان الذى كرمه الله على كثير من خلقه فكفر النعمة وغمط الحق .

فالتقليد إذا كان خيرا محضا كالتسابق فى الخير ، والتنافس فى صنوف البر ، والتفانى فى كل ما ينفع الأمة ويعود عليها بالخير والبركات ، كالتسابق فى بناء الوحدات الصحية التى تصون صحة أبناء الأمة وتوفر لهم خير العلاج ، وكالتنافس

فى مساعدة المحتاجين وإغاثة الملهوفين ، وتشييد الملاجىء والمستشفيات ، وتعليم أبناء الفقراء ، تقليدا للخيرين ، وتشبها بالبررة الكرام فى كل عصر ، وترسما للمثل العليا فى الشعوب الراقية : أقول إذا كان التقليد على هذه الشاكلة كان من الأمور العظيمة التى لها خطرها فى بناء كيان الأمم ، وكان بالتالى مطمح نظر الدين ومحل تقديره . فلا غرابة إذا رأيناه يكثر من طلبه وبحث عليه ، ويسميه تأسيا بالقدوة الحسنة ، وتشبها بالكملة من الناس . على أنه فى الواقع معبد الطريق ممهد السبيل : لأنه غريزة فى الانسان يصاحبه فى كل أطواره ، تنم عنه حركاته التقليدية أيام طفولته ، وحرصه على أن يكون من النبغاء كهلا وبافعا ، ومبالغته فى أن يكون اسمه مسجلا فى صحيفة العباقرة رجلا كامل الرجولة . ولا غرو إذا كانت منزلة التقليد فى نهضات الأمم مكانة اللبنة الأولى من الأساس ، والحجر الأول فى مقومات الجماعة .

أجل : فأن للأمم عوامل كثيرة ، تنهض بها ، وتأخذ بيدها الى معارج الرقى .

فالعلم النافع طريق صحيح لرقى الأمم ؛ وسهر الزعماء والقادة على مصالحها سبيل معبد لسعادتها ؛ وإخلاص بنيها فى خدمتها وتفانيهم فى توفير أسباب عزتها يسير بها إلى المجد قدما ؛ والدفاع عن حرياتها والذود عن حماها والتضحية فى سبيلها بكل مرتخص وغال موصل جيد إلى ما تبغيه من عزة وما تريد من سلطان .

لكن هذه العوامل كلها مع كثرتها وكثرة ما تحويه من مزايا ، لا تصل بالأمة إلى قمة المجد إلا إذا كان لبنيها فى كل هذه النواحى قدوة حسنة يترسمون خطاها ، ومثل عليا يأتسون بها فى كل ما يريدون لها من عزة وبعد صيت .

أما مكانة التقليد بهذا المعنى الجميل فى نظار الدين فهى المكانة التى لا تبارى ولا يشق لها غبار : ألم تر إلى القرآن الكريم كيف حثنا على التأسى بالقدوة الحسنة فى قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » وفى قوله تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وكيف وضع بين أيدينا صورا شتى لعباده الذين صاحبهم التوفيق ولازمهم السداد ؛ لنسير على نهجهم ونقتدى بسيرتهم .

استمع إلى القرآن الكريم حيث يقول « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والذين

يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما ، إلى آخر الآيات الكريمة فى سورة الفرقان .

بل انظر إلى القرآن الكريم كيف يصور لنا سلوك الكملة من الناس ، والسعداء من عباده المؤمنين الذين عرفوا قيمة العمل فجدوا نفوسهم على تحصيله ، وقدروا حسن الجزاء فسعوا إليه حثيثا ؛ وذلك حين يصف لنا حال المتقين فيقول « إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » ليفتح أمامنا العمل الصالح ، ويمهد لنا سبيل الاخلاص فيه لنسعد بما أعده الله لعباده المخلصين .

وانظر إليه كيف يصف حال المؤمنين الصادقين الذين لم تزل قدمهم لوسوسة المفسدين وتخييل المنافقين ، وكيف يضع يدنا على ما كان منهم من حزم وثبات وصبر وجلد ، وكمال دين وقوة يقين ، إذ يقول : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » .

وكيف نهانا سبحانه عن أن نركن إلى قرناء السوء ، أو أن نسير على نهجهم المعوج فقال « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بأن نقتدى برسوله العظيم ونترسم خطاه ، فلأنه صلوات الله وسلامه عليه كان المثل الأعلى للانسانية الكاملة فى كل صفاتها ومميزاتها ، ولأن السير على نهجه القويم الذى رسمه لنفسه فى السلوك كاف فى وصول الانسان إلى كل ما يبتغى من عزة أو يريد من كرامة

فهو صلى الله عليه وسلم مثل أعلى فى الثبات على المبدأ ، ولذا قال حين طلب منه الكف عن دعوته « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » مع كل ما كان يلقاه من خصوم الدعوة من شدة وبطش .

وكان مثلا أعلى فى الانصاف ، ولذا يقول : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » !

وكان مثلا أعلى فى التواضع ، ولذا قال لتلك المرأة التى ريعت منه وتملكها الفزع بين يديه : « ليفرخ روعك فانى لست بجبار ولا متسلط قاهر ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد » !

وكان مثلا أعلى فى الصبر على الملمات والتسليم لقضاء الله ، ولذا قال حينما مات ولده ابراهيم « العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا : وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » . فياله من قدوة حسنة يجب التأسى بها ، ومن مثل أعلى يتحتم على المؤمنين الصادقين ترسم خطاه !

لا يبلغ الواصف المثنى مدائحه وإن يكن محسنا فى كل ما وصفا

وهذه المعانى السامية التى اختص بها صلى الله عليه وسلم ، هى التى طبعت أصحابه بطابع الكمال ، ودربتهم على خير الخلال .

فها هو ذا عمر بن الخطاب كان مثلا أعلى فى الحرص على مصلحة الرعية وتفقد أحوالها ليلا ونهارا : مر ذات ليلة فى بعض شوارع المدينة فسمع امرأة تُنْشِدُ وهى فى خدرها بيتين تشكو فيهما غيبة زوجها ، فسأل عنها فعلم أن زوجها فى الغزو ، قد طالت غيبته ، فأصدر أمراً بأن لا يغيب الجندى عن أهله أكثر من أربعة شهور .

وكان مثلا فى الانصاف ، فقد ضرب بدرته سعد بن أبى وقاص وهو خال الرسول ، حينما رآه يتخطى رقاب الناس ليأخذ عطاءه . فقال سعد : لم هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : رأيتك تستهين بسلطان الله فى أرضه ، أردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك !

وكانت تجبى إليه خيرات فارس والروم ومصر والعراق ، وهو الورع الزاهد يلبس المرقع من الثياب ، ويأكل خبز الشعير بغير إدام .

هذه الخلال الكريمة وأمثالها هى التى ملكت على المسلمين فى العصور الأولى زمامهم ، واستولت على مشاعرهم ، فكانوا مثلا عليا رقت بالإنسانية الى أوج عزتها ، وسعد الناس فى رحابها ، واتسع سلطان الدولة الإسلامية ، وطبقت سمعتها أجواز الفضاء ، وسارت مع الشمس الى كل أفق ، وصاحبت القمر المنير فى كل مطلع .

وإن تاريخ الأمم الإسلامية لحافل بالمثل العليا فى كل نواحى الحياة ، ولم يكن ذلك مقصورا على الرجال فحسب ، بل كان للنساء الحظ الوفير فى الشجاعة والصبر وقوة الإيمان والثبات إذا ادلهمت الخطوب أو اسود ليل النوائب .

فهاهى امرأة أبى طلحة مات ابنها وأبو طلحة غائب فى عمله اليومى ، فلما قدم الى البيت سأل عن حالة ابنه ، فقالت له امرأته : إنه لم يكن فى يوم من الايام أحسن حالا ولا أهدأ بالا منه اليوم . فاطمأن وقدمت له الطعام فطعم ، ولما أخذ قسطه من الراحة قالت له : يا أبا طلحة ألا تعجب لجيراننا ! كانت عندهم وديعة لبعض الناس فلما جاؤا يطلبونها غضبوا . فقال بئس ما صنعوا ، الوديعة لصاحبها شاؤا أو أبوا . فقالت : إن ابنك كان وديعة لدينا من الله عز وجل وقد استرد اليوم وديعته ! . فما زاد على أن استرجع ، ثم ذهب الى الرسول الكريم فأخبره الخبر : فقال الرسول : إنها ستنجب لك أولاداً كثيرين . وقد حقق الله هذه البشارة النبوية لأبى طلحة ، فولدت له امرأته هذه عشرة أولاد كلهم حفظ القرآن الكريم .

ولقد بقى تاريخ أولئك الأقدمين مناراً للسارين ، ودليلا واضح الحجة للعاملين ، الى أن فترت العزائم ، وتغلبت الشهوات ، وجرف سيل المدنية الكاذبة كل حزم وعزم وخلق كريم .

على أننا فى هذا العصر الحاضر يسرنا أن نرى فى بنى المسلمين فى جميع الأقطار ميلا كبيرا لتقليد أسلافهم الأولين ، والسير على طريقة أجدادهم الأمجاد الذين بنوا لهم صروح المجد ودعموا بنيان الأخلاق : فتركوا ما ألفوه زمنا طويلا من التقليد الأعمى فى كل شؤونهم : فى البيوت والدور ، فى إنفاق المال فى غير النافع ، وإضاعة ثرواتهم فيما لا يجدى ، ومحاكاة المفسدين فى آرائهم ، والخروج على تقاليدنا الصالحة الموروثة ، والتظاهر بالوطنية فى وقت الرخاء حتى إذا جد الجد انماعوا وتلاشوا كما تنماع قطرة الندى تحت أشعة الشمس الوهاجة .

والفضل فى كل ذلك للشدائد والنوب ؛ فجزى الله الشدائد كل خير ، نبهت منهم الغافل ، وأيقظت كل كسلان ؟

شعراء الازهر

أحمد الزين

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الجواد رمضان

المدرس بكلية اللغة

إذا كنت ـ يا زين ـ زينَ الأدب فأن كتابك زين الكتب
قلائد ، طوقْتَ جيد البيان بهن ، وحليت جيد العرب
خلائق تزرى بنفح الرياض إذا ضحكت من بكاء السحب
وما المرء إلا خلاق كريم وليس بما قد حوى من نشب

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

هذه أبيات لشيخ الشعراء ، المغفور له اسماعيل صبرى باشا ، يقرظ بها كتاب « قلائد الحكمة » الذى ألفه الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد الزين ، وهو لما يزل طالبا فى سن العشرين ، وقدم له الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى بك بمقدمة فى فلسفة الأخلاق ، جاء فى ختامها : « هذا غيض من فيض أسوقه بين يدى ما أنا فيه الساعة من النظر فى أرجوزة الأخلاق الموسومة بقلائد الحكمة للشاعر المطبوع الشيخ أحمد الزين : فقد جمعت فى أقل من ألف بيت ، ما تشتت من شمل الكلم النوابغ ، وتفرق من درر الحكم البوالغ . . . ولا غرو ، فقد نبغ الأستاذ الزين عبقريا بطبيعته ، كبيرا على حداثته ، مبرزا وهو فى سن العشرين ، على فحول المعرقين » .

من هذه القلائد فى آداب الأصدقاء :

أرى القطا أسرابا فاطلب الأصحابا
إن الصحاب عُدة ذخيرة للشدة

هم زينة الإنسان وسلوة الأحزان
هم حلية المعطل وهم سلاح الأعزل
إياك والمنازعة فانها مقاطعة

وأذكر — وما أوجع الذكرى ! — أنه حينما كان يطيب لنا فى نادى الشعراء ، قهوة عم حسنين بشارع محمد على ، أن نعم بأثارة المرحوم الزين ، يقودنا المرحوم الأستاذ الهراوى ، فى نشيد منغوم ، تنجاوب أصداؤه فتستوقف السابلة ، ويهتاج الزين ، فيقذف كل واحد منا بمقطعة : فهذا جاهل ، وهذا متشاعر ، وهذا لو ذهبت كل كلمة من شعره إلى صاحبها ، لما بقى له شىء الخ الخ ونحن — مع كل أولئك — ما نزال نتغنى منشدين :

« يمشى » القطا أسرابا فاطلب الأصحابا

هكذا نغير « أرى » فنجعلها « يمشى » والقطا لا يمشى ، ولكنه يطير : لنزيد فى ثورته وإقذاعه ، حتى نبلغ من ذلك ما نريد . أواه

لله أيامنا المواضى لو كان ماض لنا يعود ! وهيهات !

ومنها فى فضل العلم :

والعقل غرس طيّبُ له العلوم صيّب
يذبل منه ناضرُهْ إنْ لم يَصُبْهُ ماطرُه
فروّه بالعلم وزّكه بالفهم
والذهن مثل النار فى المَرْخ والعَفار[1]

وختمها بقوله :

تلك سجايا عالية وذى عظات غالية
جمعتها فى شعرى كلؤلؤ فى نحر
فى حين أن الأدبا فى أرض مصر نَضَبا
وباذل الآداب كباذل التراب
فكدت عنها أنكل لولا الامام الأفضل

---

(١) المرخ والعفار : شجرتان فيهما نار ليس فى غيرهما من الشجر ، ويسوى من أغصانهما الزناد فيقتدح بها .

علامة الزمان ومهبط العرفان
هذا فريد العصر وغرة فى مصر
وذو العلا والمجد فيها « فريد وجدى »
تلك يد لا تكفر ومنة لا تكر

وقد طبعت هذه القلائد سنة ١٩١٨ ؛ وكان قد سبقها إلى الوجود ، « القطوف الدانية » فطبعت سنة ١٩١٧ ؛ وهى « باكورة شعر الزين » ، جمع فيها طائفة من قصائده فى مدائح بعض البارزين يومئذ ، وعلى رأسهم المغفور له صاحب العظمة السلطان حسين كامل ، طيب الله ثراه . وفى الغزل والعتاب ، وختمها بتخميسه لمعلقة امرىء القيس ، الذى نشره قبل ذلك على حدة : وكان له فى آفاق الأزهر وخارج الأزهر صدى بعيد المدى .

وعلى الرغم من قوة شعر الزين فى هذه الباكورة الرائعة المبكرة ، فقد طغت عليها محفوظاته الزاخرة ، فظهرت المحاكاة فى مواضع منها : قوية حينا ، وضعيفة حينا : ولكنها على كل حال بواكير نابغة موهوب .

فمن غزله الرقيق :

أهاج الشوق من سلمى ادّكارُ عشية خفّ بالركب القطارُ
وزار لها على الهجران طيف وهل أبقى الهوى بى ما يُزار ؟!
تردّت من غدائرها بليل كذلك يرتدى الليلَ النهار
أترهب غرب سيفك أسد ترج وبعييك التجلد حين ساروا
تسائل أربُعا بالجزع أقوت وتحكى رسمها ديمٌ غزار
فما لطلولها تأبى جوابا وأنى تنطق الدمن القفار
وقد حل البلى فيهن حتى كأن على معالمهن قار « كذا »
كأن لم تغن بالشمار ليلا ولم توقد بها للضيف نار

* * *

ومما يبدو فيه المحاكاة ، قوله يمدح « علامة العصر ، وفريد الدهر ، وفخر مصر ، الأستاذ محمد فريد بك وجدى » معارضا مروان بن أبى حفصة فى قصيدته التى أولها : « طرقتك زائرةً فحىّ خيالها » :

قفْ بالرُّبوع مسائلا أطلالها ... أمست يجرُّ بها الصبا أذيالها
دِمَن عفون ، وأصبحت عرصاتها ... تُزجى بها قُلصُ النعام رئالها
ولقد نعمتَ بها ودهرك مقبل ... بوعود خود ما خشيت مطالها
دار لبيضاء السوالف طفلة ... رُود تُزير على الفراق خيالها
وكأنّ بارق ثغرها إن حدّثت ... هندية تضمن القيون صقالها
وكأنّ في فيها سلافا قرقفا ... تسقيك من بعد الكرى سلسالها
عهدى بها تصل الحبال ، فما لها ... قطعت حبالك بعد وصلك مالها ؟
أرأت نذير الشيب لاح بمفرق ... أم قد أطاعت في الهوى عذّالها
لا تحسبي يا نعم شيبي كبرة ... لكنها غير الخطوب ، فيا لها !
عما حمى عيني كراها أنني ... في أمة قد سوّدت جهّالها
ما زال ليل الجهل فيها ضاربا ... حتى رأيتك يا « فريد » هلالها

ومن الطريف الذى لا يتمشى عجبه ، خلق الاعتداد العالى بالنفس ، الذى شب مع الزين وصحبه إلى لحده ، فحدا به — وهو لما يزل طالبا — إلى أن يوجه إلى المغفور له الشيخ عبد الرحمن قراعة ، وهو مدير الأزهر ، وفى الخلاصة من أدبائه ، قصيدة من ثلاثين بيتا ، يعاتبه بها . ويبعث بها إليه : يقول له فيها :

تحمّل رعاكَ الله منى رسالةً ... تبلغها عنى المدير المعظما
تقول له : إنى صحبتك حجة ... أظنك لى يوما إلى المجد سُلما
ألا إن سوء الظن بالمرء عصمة ... نظُنّ بكل الناس شرا لتسلما
ولا تنس يوما من مسيء إساءةً ... وإن هو أولاك الجميل وأنعما
ولا تك ممن غره الجهل فاغتدى ... يعدّ صديقا من أتاه مسلما
وقد كنتَ لى ضرسا فساورد الضنى ... فنحيته عنى وقد كان مؤلما
وكان لسانى جُنة دون عرضكم ... وسيفا على الأعداء منكم مصمما
فمن ظلمكم صيرتموه عليكم ... سليلا ، وكان الظلم للمرء مغرما
يكيدون لى من غير ذنب إلى العلا ... فمن كاد فليمدد بحبل إلى السما

أضيعت حقوق الأذكياء بأرضكم وكنت أرى ألا تضاع وتهضما
فإن لم يكن للمدح عندك حرمة فشيد بناء العدل إن كنت مسلما

* * *

فأما تخميس المعلقة، فقد أحدث — كما أسلفنا — ضجة، كان بها خليقا؛ فان القوة تشيع فى أطرافه، ويضاعف الإعجابَ به حداثةُ ناظمه، مما طار بذكره ومهّد له من مجالس العظماء فى الأزهر وفى غير الأزهر، وأثار فى نفوس كثيرين من لداته ومن غير لداته، الحسدَ له، والغيرة منه؛ ومن ذا الذى يسمع طالبا فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة، يجارى أمير الشعر الجاهلى، الملك الضليل، فيقول:

بكيت على ربع ورسم معطل يجود ثراه كل أسحم مسبل
وقلت وقد حلّت بفلج فأسل (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل،
ربوع بعيدٌ بالظعائن عهدها ودار بذات الأثل أطفل رسمها
وأخرى بجزوى مثلما لاح وشمها (فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل،

ويسير فيها على هذا النسج البارع، حتى يختمها بقوله:

وما زال طير الأيك يسجع بكرةً ولم يدر أن قد هاج لقلب لوعةً
يحنّ وما تذرى له العين دمعةً (كأن بكاكى الجواء غديةً
صبحن سلافا من رحيق مفلفل،

ثم لا يملأ الإعجاب نفسه، أو يأكل الحسد قلبه؟!

والحق أنه لو اطرد رقى الزمن فى حياته العاملة بنسبة بدايته، لمات وهو أمير الشعراء وشيخ العلماء؛ ولكن حرفة الأدب أدركته، منذ تخرجه سنة ١٩٢٥ فأخذت ترفع عمله الصالح إلى أسفل، وحرجت به بعدئذ الصدور التى كانت تتسع لداته قبلئذ فى الأزهر، فتركته يردد:

فيالك بحرا لم أجد فيه مشربا على أن غيرى واجد فيه مسبحا !

* * *

أحـــرام على بلابله الدو ح ، حلال للطير من كل جنس ؟
ولا من سميع !

ثم عطفت عليه المكتبة الملكية ، فساكنته فى عمالها بالمياومة من سنة ١٩٢٦ حتى أدركه « الإنصاف » فرقاه إلى الدرجة السادسة .

زرتُ القسم الأدبى الذى كان يعمل فيه « الزين » منذ شهور ، فاستبدّ بى دون أصدقائى فى القسم — وكلهم أصدقائى — وأخذ يطلعنى على ثمرات جهوده : ثم قال : أنا أريد أن أعمل فى الأزهر : قلت : إن فى الأزهر شرا كبيرا لا تقوى على احتماله : قال : وكيف قدرت أنت على احتماله ؟ قلت : مكره أخاك لا بطل : إننى فيه كما قال أستاذك حكيم المعرة :

فيا برق ، ليس الكرخ دارى وإنما رماني اليه الدهر منذ ليال

قال : فلا كن معك فى الجحيم ! قلت : سأرجو أولياء الأمور أن يندبوك لدراسة الأدب فى كلية اللغة : قال : بل يعينونى تعيينا : قلت : إن دون ذلك أهوالا ! قال : حاول : قلت : أبذل جهدى .

ثم زرت القسم الأدبى بعد ذلك بأسابيع ، ولما سألت عنه ، قيل لى : لقد نقل الى وزارة المعارف ، قلت : عجبا ! وما يصنع الزين فى وزارة المعارف ؟ قيل : إن « التنسيق » قد أهله للدرجة الخامسة : ولما لم يكن فى ميزانية المكتبة خامسة خالية ، فقد نقل الى « قسم الثقافة » فى الوزارة ، تمدانا للدرجة : قلت : خير . وتنظرت أن أقرأ اسمه فى ترقيات وزارة المعارف فى الصحف : ففجأنى نعيّه بعد أيام !

* * *

ولم يقتصر النحس الذى لازم الزين ، على الحياة العملية ، بل أدركه

فى الأدبيات ؛ فأن غيره من الشعراء الذين يعترفون للزين بالتقدم ، ويعتقد هو ـ وهو محق فى الجملة ـ أنه أشعر منهم ، كالأستاذ على محمود طه ، والأستاذ رامى ، والأستاذ محمود أبو الوفا ، قد شغلوا كبار الفن الغنائى فى مصر ، بآثارهم ، من الأشعار ، والموشحات والأزجال ؛ ولم تسمح أم كلثوم ، ولم يسمح عبد الوهاب ، بتلحين مقطوعة للزين ، على تطلب ، وعلى صلاحية شعره ، وبخاصة ما صنعه لهذا الغرض كمقطوعة « العود » للتغنى والتلحين : ومرد ذلك الى إسرافه فى الاعتداد بالنفس كما قلنا : ولا يتلاقى تيهٌ وتيه ؛ فى المثل : « تيه مغنّ ، وظرف زنديق » .

* * *

وقد غلب على الزين : « الشاعر الراوية » منذ حداثته ، لكثرة محفوظاته ، التى جرت فى شعره أولا محاكاة وتقليدا ، ثم لما أخل سرت فيه جزالة ، وفخامة وشدة أسر ورصانة قافية وحلاوة جرس . وكان الزين جميل الإلقاء ، لا يتكلف ولا يتصنع ، ولا يمضغ الكلام مضغا ، يغثّ النفس ، ويسك السمع ، كما يفعل كثير من المتكلفين : بل كان يرسل الكلام على سجيته ، متغنيا مطبوعا ، فيخلب الألباب ، ويسحر النفوس ، ويستولى على القلوب .

وما أقيمت حفلة رثاء لعظيم من عظماء مصر ، إلا كان مكانه فيها بجانب شوقى وحافظ والمطران : يُنسَى غيرُه ويُذكر ، ويرد غيره ويطلب : وهو فى كل أولئك مطمح الأنظار ، وزين الحفلات !

* * *

أما بعد ، فلقد فقد الأزهر آنفا ، شاعرا أكسبه فخرا بلا ثمن : أجل ، لقد فقد الزين ! ؟

ابن مضاء القرطبي

والرد على النحاة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

٣ — ويلجّ المؤلف فى ذكر مساوىء حذف العامل ، وما استتبعه من فساد وخطل ؛ فهناك ضروب من الحذف فى زعم النحويين لو أظهر المحذوف لاستحال المعنى وغثّ ، وكان التأليف تأليف سوء يمجّه الذوق وينبو به اللسان . واختار ابن مضاء للإبانة عن دعواه هذه مثالين :

ا — فهم يقدّرون فى أسلوب النداء — نحو يا عبد الله — العامل أدعو . ومن المقرّر أن أسلوب النداء إنشاء لا خبر ، ولو أن هذا الذى قدّره النحاة أبرز ، فقيل : أدعو عباد الله لانقلب الكلام خبرا ، ولتغيّر الأسلوب وزال عن وجهه : ومبعث هذا هو تقدير العامل ، وجعل قضيّته فى العربية ضربة لازب لامناص منها . والنحويون لم يكونوا ليغيب عنهم ما أورده عليهم ابن مضاء وألزمهم إيّاه . وهم يقولون : إن الخبر قد يأتى فى موقع الإنشاء ، كما يقال : سدّد الله خُطاه ، وأجزل ثوابه ، وهذا لا يجحده القرطبي فيما نعلم . وفى أسلوب النداء من الدليل على أن الغرض الإنشاء من لفظ الخبر لو صرح به ، مالا مجال لإنكاره . ويقول النحاة : إن العرب عدلوا عن ذكر العامل وإنابة الحرف عنه ، للنصّ على هذا الذى يحرص عليه المؤلف الناعى عليهم ، وليكون الأسلوب إنشاء لا ريب فيه ، ولا احتمال يعتريه . وقد دعاهم إلى أن فى الكلام تقديراً أن النداء كلام مستقل ، والشأن فى الكلام أن يتألف من اسم وفعل أو من اسمين . وما عهدنا كلاما تألف من حرف واسم ، فهذا مبعث التقدير ، وليس مبعثه — كما يزعم القرطبيّ —

العامل . ويحسن أن أذكرها أن من النحويين من لا يقدّر العامل فى أسلوب النداء . فيرى المبرد أن [١] حرف النداء هو العامل لسدّه مسدّ الفعل ؛ ويرى أبو على الفارسىّ أن أدوات النداء أسماء . وإذاً لا يتوجه هذا النقد إلى جميع النحاة ، كما يوهمه كلام ابن مضاء .

ب — والنحويون يقدّرون فى نصب المضارع بعد الفاء والواو أنْ المصدريّة ، ويسندون النصب إليها وهى مضمرة لا سبيل إلى إظهارها . فنى نحو اجتهد فتنجح ، التقدير اجتهد فأن تنجحَ . وقد ساقهم هذا إلى تأويل هذه الجملة بالجملة الآتية « ليكن منك اجتهاد فنجاح » . وقد علمت أن مظهرة ومضمرة لكثرة استعمالها فى النصب بها ، فكانت أمّ الباب فى النصب كما يقول النحويون . والقرطبى يورد عليهم المثال : « ما تأتينا فتحدثنا » فإن تأويله على مذهب النحاة : « ما يكون منك إتيان فحديث » . ويزعم القرطبى أن هذا التأويل لا يقوم فى المعنى والغرض بما قام به الأصل . ذلك أن المثال « ما تأتينا فتحدثنا » يأتى على وجهين من المعنى : فيجوز أن يكون المراد : ما تأتينا فكيف تحدثنا ! أى أن يكون المراد نفى الإتيان فينتفى تبعا لذلك الحديث ؛ إذ كان الحديث مسببا عن الإتيان . ويجوز أن يكون المراد : ما تأتينا محدثا ، أى ما تأتينا فى هذه الحالة حالة تحديثك إيانا ، وإنما تأتينا غير محدث لنا . فهذان المعنيان يحتملهما الأصل . فأما تأويله وهو « ما يكون منك إتيان فحديث » فلا يحتمل هذين المعنيين ، فيما زعم ابن مضاء ، رحمه الله . وهنا وقع فى الكتاب فى الحديث عن التأويل : « وهذا اللفظ لا يعطى معنى من هذين المعنيين » وأغلب الظن أن الأصل : لا يعطى هذين المعنيين . ولم يفصح ابن مضاء عن وجه قصور التأويل عن الأصل ، ويغلب على الظن أنه يرى أن التأويل يعنى نفى الإتيان البتة . على أن هذا زعم من ابن مضاء لا يتابع عليه : فإذا قلت : ما يكون منك إتيان فحديث ، كان المعنى : ما يكون منك إتيان يعقبه حديث . وهذا يكون إذا لم يأت أصلا ، أو أتى ولكنه لم يحدث ؛ ولا شك أنه فى الحالة الأخيرة يصح أن يقال : ما جرى منك إتيان فحديث ، بل أتيت فلم تحدثنا . ومن المعروف الذى لا ينكر

---

(١) راجع شرح الرضى على الكافية فى مبحث المنادى .

أن النفى إذا توجه الى مقيد بقيد فقد يقع النفى على المقيد ويتبعه نفى القيد ، وقد يقع النفى على القيد دون المقيد . وقد جاء قوله تعالى : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » ، ويرى بعض المفسرين أن جملة ترونها فى موقع الصفة لعمد ، ومن هؤلاء من يرى أن المعنى أن ليس هناك عمد ، وبعضهم يرى أنها لا عمد لها لا ترى ، ومن هؤلاء مجاهد وقتادة . ويرى الفخر الرازى أن المعنى بالعمد إمساك الله لها ، وتدبيره لها ما تبقى به فى الحيز العالى ، ولا تتساقط . وقد بان من هذا أن التأويل يقوم فى المعنى بما قام به أصله . أما وجوب إضمار أن وتجنب ذكرها فيعلله النحويون بالمحافظه على صورة عطف الفعل على الفعل ، ولو أظهرت أنْ لكان فيه صورة عطف الاسم على الفعل .

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام أن تقدير أن وإحالة النصب عليها هو رأى البصريين ، فأما الكوفيون فيرون النصب بالفاء والواو ، فلا حذف عندهم ، ومن ثمّ لا يتوجه هذا النقد اليهم . ومن الكوفيين من يرى أن النصب بالمخالفة ، وهى عامل معنوى لا يحوج الى تقدير . وهنا ينبغى أن ننبه الى ما يكرره ابن مضاء أن النحويين وضعوا هذه القاعدة « كل منصوب فلا بد له من ناصب لفظى » ، فقد رأيت أن الكوفيين منهم من يجعل النصب بالمخالفة ، وهو عامل غير لفظى . وهذا العامل يقولون به فى الأسماء ، كالمفعول معه .

٤ — ويورد ابن مضاء على القول بالحذف نقضا يصوغه فى صيغة الحجة والمنطق ، ويضيق عليهم الخناق فى الجدَل والخصومة ، فإذا هو خصم جدِل قدير ، فهو يردد الحذف بين أن يكون المحذوف له وجود فى النفس ، أو لا يكون له ذلك ، فإذا لم يكن له وجود فى النفس فأنى يعمل ! « ونسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال » ، وهو إنما يورد هذا الوجه لتتميم الحصر ، وإلا فإن النحاة يكفونه مؤنة هذا ولا يقولون به . فأما إذا كان لها وجود فى النفس وحذفت فى الكلام إيجازا ، فإن هذا يترتب عليه أمور كلها شر مبين : أفليس الكلام يكون ناقصا إذا حذف منه بعض أجزائه ؟ فهذا أحد الأمور ، وهذا الذى يقدره النحويون أىّ دليل عليه فى الكلام ! إن الذى بعثهم على القول بالحذف أمر ليس فى صميم الكلام ، ولا فى طبيعة الأسلوب ؛ وإنما هو ما وضعوه

واعترضوه : « إن كل منصوب فلا بد له من ناصب لفظي، وهذا أمر ظني لا يدفع إليه قاطع من دليل ، وهو ما لا ينبغي أن ينصب في وجه اليقين ، وهو خلو الكلام من هذه المقدرات ، فيقدر ما شاء النحويون وشاءت صنعتهم . ويستجر ابن مضاء النحويين بعد هذا الى أهوية يتمعون فيها صرعى : أليسوا بهذه المحذوفات التي انساقوا اليها يزيدون في كتاب الله ما لم يأت به سلطان مبين ولا كتاب منير ويقولون في القرآن بآرائهم ، وقد جاء في هذا الوعيدُ الشديد ، ويقولون في القرآن بغير علم ، وهذا من أكبر الموبقات والآثام ! .

والنحويون لا يبالون أن يكون الكلام ناقصا إذا دل الدليل على أن في الكلام حذفا . وابن مضاء يقول بالحذف في بعض الكلام ، ويرضى للكلام أن يكون ناقصا إذا دل عليه دليل : كما في قوله تعالى : « ناقة الله وسقياها » . وهم يرون فيما يذهبون إليه من وجوه الحذف أن الدليل دل عليه . فلا عليهم أن يقال إن الكلام ناقص كما يقول ابن مضاء . وموضع الخلف بينهم وبين ابن مضاء أنهم يرون أنفسهم مسوقين في الحذف وراء الدليل ، وابن مضاء ينكر عليهم هذا . وفي الأمثلة التي أوردها عليهم — نحو أزيدا ضربته ؟ ويا عبد الله ، وما تأتينا فتحدثنا — دل الدليل القوي عندهم على الحذف فاعتمدوه وقالوا به : كما قال هو في بعض أبواب الحذف . ولو أنه أقنعهم بأنه لا موجب للحذف لعدلوا عنه ، ولكفوا مؤنة التأويل والتقدير . ولكنه لم يبلغ أن يصرفهم إلى رأيه ، ويلفتهم عما استقر عندهم من الرأي والمذهب . وإذا كان الحذف لبعض أجزاء الكلام — عاملا كان أو غير عامل — سنةً من سنن الكلام العربي ، فلا بدع أن يكون في القرآن الذي جاء على غرار الكلام العربي ذلك . وينص [1] العلماء على أن المقدرات في الكتاب العزيز ليست منه : إذ هي إنما اقتضاها تركيب الكلام وفهم المعنى . والمقدرات بعدُ ليست من اللفظ المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم الذي اثر وجمع بين دفتي المصحف الكريم . ومن العلماء من يرى أن المقدرات من القرآن ولكن ليست لها أحكام القرآن اللفظية : من الإعجاز وحرمة القراءة على الجنب ، وما جرى هذا المجرى . وبعد فالأمر لا يدعو إلى هذا التهويل الذي ركب متنه ابن مضاء وبالغ فيه وأرخى لنفسه فيه العنان .

(١) انظر حاشية الامير على عبد السلام على جوهرة التوحيد في مبحث بسملة المصنف .

٥ — ويذكر ابن مضاء فيما يورده على النحويين تقديرهم متعلق الجار والمجرور فى نحو « زيد فى الدار » إذ يقولون : إن التقدير كائن أو استقر . وليس لهذا التقدير من باعث إلا ما وضعوه من : كل أثر إعرابى فلا بد له من عامل . وأقول له : إن التقدير فى هذا الباب لا يعتقده جميع النحويين ؛ فمن النحويين من يجعل الخبر هو الملفوظ ولا يقدر شيئا . فقد كان ينبغى أن يعرف ذلك ابن مضاء ويتابعهم إذا شاء ، ويعرض عن الرأى الآخر ، والذين قدروا دُفعوا إلى هذا بما ساقهم إليه النظر فى الكلام العربى . فقد وقفوا على قول كثير عزة :

فإن يك جثمانى بأرض سواكم ... فإن فؤادى عندكِ الدهر أجمعُ
إذا قلت : هذا حين أسلو ذكرتُها ... فظلّت لها نفسى تتوق وتنزع

فيرى أن أجمع توكيد مرفوع ، وليس فى الكلام المنطوق ما يصلح أن يكون متبوعا لهذا التوكيد . فكان أن ذهب النحاة بحق الى أن الأصل « كائن عندك » ، وفى كائن ضمير مرفوع انتقل الى الظرف حين حذف الوصف ، وجاء توكيد هذا الضمير مرفوعا على لفظه . وحق لهم بعد هذا أن يروا أن العربىّ ينوى متعلّقا فى هذا الأسلوب . ولولا هذا ما ساغ الإتيان بالتوكيد المرفوع . ويرى الناظر أن هذا استدلال صحيح ونظر صائب لا يدفعه ابن مضاء إن ابتغى شرعة الإنصاف .

٦ — ومما ينقده ابن مضاء ويأخذه على النحويين ما يرونه من استتار الضمائر فى المشتقّات التى لا ترفع الاسم الظاهر ، نحو محمد قائم . وذكر ابن مضاء من أدلة النحويين على هذا الزعم قول العرب : زيد ضارب هو وبكر عمرا ، فقد جاء هو توكيدا للضمير فى ضارب ، ولا يجوز أن يكون هو فاعلا لأنه ضمير منفصل ، ومجىء الفاعل ضميرا متصلا هنا بالاستتار ممكن ، فلا يعدل عنه ، كما هى السنة فى كلام العرب . فقد ثبت استتار الضمير فى الوصف فى هذا الأسلوب . والعرب تعمد الى هذا حيث يريدون العطف على فاعل الوصف كما فى هذا المثال . وابن مضاء يبدو منه أنه لا يعارض فى استتار الضمير فى هذا الموطن من الكلام حيث الحاجة ماسة إليه حتى يؤكد فيجىء العطف عليه . ولكنه لا يرى طرد ذلك وتعميمه فى سائر المواطن حيث لا تدعو الحاجة إليه . والنحويون يرون

أنه فى هـذا الأسلوب بَدَت نيّـة العربيّ فى شأن هذا الوصف وأنه يلاحظ فيه ضميراً ، فـكان ما ظهر دليلا على ما خفى : وهذا استدلال صحيح . فأما التفريق بين الوصف فى الأساليب مع اتحـاد اللفظ والمعنى فمـا لا يستقيم مع النظر الصحيح والمطق السديد .

ويذكر ابن مضاء أيضا من أدلة النحويين على استتار الضمائر فى الأوصاف قول العرب : مررت بقوم عرب أجمعون ، ومررت بقاع عَرْفج كلِّه . ألا ترى أن أجمعون توكيد مرفوع ، ولا وجه له إلا أن يجعل توكيداً للضمير فى عـرب وهو مرفوع : وكذلك كله توكيد مرفوع تابع للضمير المرفوع فى عرفج : وذلك على تأويل الجامدين : عرب وعرفج بالوصف : فيراد بعرب المتولدون من الجنس المعـروف ، وبالعرفج المندرج فى هـذا الجنس من الشجر . وإذا ثبت استتار الضمير فى المؤوّل بالمشتق فأولى أن يثبت فى المشتق المحض . ويسـلم ابن مضاء بهذا ، وإنمـا يتـكلم فى طرد هذا ، وقـد عرفت أن لا وجه له فى هـذا التأبّى : فالشأن فى اللغـة الاطراد والاقتياس : وشأن العلماء الاستدلال بالأمر يبدو فى بعض المقامات على حاله فى سائرها متى صحّ لهم وجـه الاطراد ولم يظهر وجه التفريق .

٧ — وأنـكر ابن مضاء على النحويين قولهم باستتار الضمير فى الفعل فى نحو زيد قام ، وساق كلاما طويلا فى هـذا المقـام ، وأورد فى نهايته الـكلام على الاستتار والحـذف ، ولم يستبن الفرق بينهما . والنحويون يرون استتار الضمير فى مثل هذا إذ رأوا أنه يقال : إن زيدا قام هو وعمرو : وواضح أن الضمير ليس هو الفاعل ، وإنما هو توكيد للضمير المستتر على حد ما قلنا فيما سبق فى الـكلام على الوصف . وهم يرون أن هـذا الضمير ينبغى أن يكون فوق رتبة المحذوف ، ويكون فى حـكم المذكور وإن لم يكنْـه حتى يسوغ توكيده : وذلك أن التوكيد يقتضى الاهتمام بالموكد والبعـد عن حذفه واطّراحه . فدُفع النحاة إلى القول بالضمير المستتر وأن يجعـلوا له من قوته فى النفس واتصاله بالمذكور ما ليس للمحذوف . وبذلك يبين الفرق بين الاستتار والحذف ، ويبين وجه القول فيما أورده ابن مضاء على النحاة .

٨ — وينكر المؤلف على النحاة وضعهم باب التمرين فى الصرف ، وأنه لا جدوى ولا غناء فى تعلمه والاشتغال به . وباب التمرين يقصد به تنبّه طالب العربية إلى القواعد الصرفية ، وكيف يصوغ الكلمة وفق القوانين والمزاج العام للعربية . وقد تدعو الحاجة إلى ارتجال كلم لا توجد فى اللسان ، فيحسن أن يتعود متعلم اللسان هذا الأمر . قد يدعو الأمر إلى أن أسمى من أشاء اسما يوازن فعلا من مادة باع ، فهل أقول : بوع أو بيع ؟ وقد أسمى بعض العقاقير بموازن فاعول من مادة الشفاء ، فهل أقول : شافِى أو شافُىْ مثلا ؟ والذوق العربى يجب أن يسود فى المرتجل ويجرى طبقا للمنقول فى العربية . ويعجبنى هنا ما تفعله العامة بألسنتهم فى الكلمات المعربة ، فهم إذا خلوا وسجيتهم أتوا بها صحيحة إلى حد ما . ألا تراهم يقولون : السيما فى السينما ؟ وترى المثقفين يحرصون على السينما ، ولفظ العامة أقعد وأقيس . وتراهم يقولون : الكسرونة لما عربوا كسِرُول Casserole الفرنسية . وقد جروا على المزاج العربى الذى يستثقل الراء قبل اللام ، ولا يحفظ ذلك إلا فى ألفاظ معدودة منها الغُرْلة ، وأُرُل اسم لجبل . ونحن فى هذا العصر الذى يحتاج فيه إلى إبداع أسماء للمسميات الحديثة أحوج ما نكون إلى التوسع فى باب التمرين ، والتبحر فيه ، وا كتناه أسرار العربية ، حتى نحاذيها ونسير على منهاجها . والله الموفق للصواب .

بيان حقيقة

نسب إلىّ زميلى الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان أبياتا فى مقاله المنشور بعدد (جمادى الأولى من مجلة الأزهر) فأصرح بأنها ليست لى ، ولا أحب أن تنسب إلىّ ولو مداعبة ؟

عبد المتعال الصعيدى

ضرب الناشزة فى الاسلام

مباح مبغوض

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
المدرس بكلية اللغة العربية

قد يقرأ كثير من الناس قوله تعالى فى الآية — ٣٥ — من سورة النساء : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا » ، فيظن أن الله أباح للرجال ضرب الناشز من النساء على أنه شىء يليق بالرجل الكامل ، ولا يقدح فى مروءته ولا ينقص من منزلته . وقد يفهم كثير من النساء أن الله أباح بذلك ضرب الناشز منهن إباحة خالصة ، يأتيها الرجال كما يأتون سائر المباحات ، فلا يكون عليهم فيها حرج ، لأن إتيان المباح لا حرج فيه ، بل قد ورد الترغيب فى إتيان ما أباحه الله ، لأن الله يحب أن نأتى بما أباحه لنا ، كما يحب أن نأتى بما فرضه علينا ، ولهذا ذم فى القرآن من حرم على نفسه ما أباحه الله له : فإذا فهم بعض النساء ذلك من إباحة ضرب الناشز منهن دخل فى نفوسهن منه ما يدخل ، وقلن كيف يضع الله تعالى المرأة من الرجل هذا الموضع المذل ، وهو الذى رفع من قدرها ما رفع ، وأعطاها من الحقوق ما أعطى ، ومنع عنها من المهانات ما كانت فيه بمنزلة العجماوات ، إذ كانت تحرم من الميراث ، ويجحد حقها فيه كفرد من الأسرة ، وإذ كانت تورث مع التركة ولا ينظر اليها فى هذا كإنسان لا يصح أن يورث ، وإذ كان يباح للرجل وأدها وينظر اليها فى هذا كحيوان لا حرمة لنفسه ، فلم يرض الاسلام لها شيئا من هذا كله ، وأنصفها فيه من الرجال الذين استغلوا ضعفها بإزاء قوتهم : فكيف يبقى لهم مع هذا حق ضربها ، ولا يرى فيه شيئا من الحرج عليهم ، وفى هذا هدر لكرامتها كشريك لزوجها فى منزلها وأولادهما ، وحط من منزلتها

أمام أولادها و خدمها ، فتسقط هيبتها فى نفوسهم ، ولا يؤدون لها حق الطاعة كما يجب ، لأن الزوج يعاملها بالضرب أمامهم كما يعاملهم ، فلا يرون فرقا بينها وبينهم .

وإنى أرى أن أعنى أولا بدفع ما يفهم من تلك الآية من إباحة ضرب الناشز من النساء إباحة خالصة ، وأن أبين أن الله يشرع فى مثل هذا للمصلحة التى لا يصح أن تتأثر بالعاطفة ، فيبيح أحيانا مالا يرضيها لأن المصلحة تقتضيه ، وقد يصل فى إيثار المصلحة إلى حد أن يبيح من الأشياء ما يبغضه ، ولهذا أباح الطلاق وجعله أبغض الحلال إليه : وكذلك ضرب الناشز من النساء ، فليس من المباحات التى يحب الله أن تؤتى كما تؤتى فروضه ، وإنما هو كالطلاق الذى أباحه وكره أن يؤتى .

وإلى هذا ذهب عطاء فى ضرب الناشز من النساء ، فقال : لا يضربها وإن أمرها ونهاها فلم تطعه ، ولكن يغضب عليها . وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربى أن هذا من فقه عطاء ، فإن من فهمه بالشريعة ووقوفه على مظان الاجتهاد علم أن الأمر بالضرب فى تلك الآية أمر إباحة ، ووقف على الكراهية من طريق أخرى ، فى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث عبد الله بن زمعة « إنى لأكره للرجل يضرب أمته عند غضبه ، ولعله أن يضاجعها من يومه » . وروى ابن نافع عن مالك عن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استؤذن فى ضرب النساء ، فقال « اضربوا ، ولن يضرب خياركم » فأباح وندب إلى الترك ، وإن فى الهجر لغاية الأدب . ثم قال القاضى أبو بكر : والذى عندى أن الرجال والنساء لا يستوون فى ذلك ، فإن العبد يقرع بالعصا ، والحر تكفيه الإشارة ، ومن النساء بل من الرجال من لا يقيمه إلا الأدب ، فإذا علم ذلك الرجل فله أن يؤدب ، وإن ترك فهو أفضل . قال بعضهم وقد قيل له : ما أسوأ أدب ولدك ! فقال : ما أحب استقامة ولدى فى فساد دينى . ويقال : من حسن خلق السيد سوء أدب عبده . وإذا لم يبعث الله سبحانه للرجل زوجة صالحة وعبدا مستقيما فإنه لا يستقيم أمره معهما إلا بذهاب جزء من دينه ، وذلك مشاهد معلوم بالتجربة .

وقد ورد مثل هذا فى كتاب الطبقات لابن سعد ، فروى عن القاسم بن محمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ضرب النساء ، فقيل : يا رسول الله ، إنهن قد فسدن ، فقال « اضربوهن ، ولا يضرب إلا شراركم » . وروى عن أم كلثوم بنت أبى بكر أنه كان قد نهى الرجال عن ضرب النساء ، ثم شكاهن الرجال إلى رسول الله فخلى بينهم وبين ضربهن ، ثم قال « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن قد ضربت ، ما أحب أن أرى الرجل ثائر فريص عصب رقبته على مُرَّ يئته يقاتلها » . وروى عن إياس بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لاتضربوا النساء » فتركوا ضربهن ، فجاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، قد أبرَّ النساء على أزواجهن ، فأذن فى ضربهن . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن تشكو زوجها ، ولا تجد أولئك خياركم » .

فهذه كلها أحاديث تدل على كراهة ضرب الناشزات ، وتصف من يضربهن من الرجال أقبح وصف ، فيجب أن تحمل إباحة ضربهن فى القرآن على حال الضرورة : وهذا حين لا يجد الرجل مفراً من هذا التأديب ، فيكون التأديب بالضرب حينئذ خيراً من التأديب بالطلاق ، لأن ضرر الضرب يقتصر أمره على المرأة ، أما ضرر الطلاق فيتعداها إلى أولادها ومن يؤذيه طلاقها ، ويورث العداوة والبغضاء بينه وبين أهلها .

على أن السنة قد بينت الضرب الذى أباحه القرآن فى حال نشوز المرأة ، فإذا هو لا يطلق عليه اسم الضرب إلا على نوع من التجوز والتساهل ، وقد جاء تفسير هذا الضرب فى بعض ما رواه الطبرى ، فروى عن قتادة أنه قال فى تفسير « واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » : تهجرها فى المضجع ، فإن أبت عليك فاضربها ضربا غير مبرح ، أى غير شائن .

وروى عن عطاء أنه قال : قلت لابن عباس : ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه . وفى رواية : السواك وشبهه يضربها به . ولا شك أن الضرب بالسواك وشبهه لا يعد ضربا ، وإنما هو مس رفيق يكفى فى تنبيه الحرة الى خطئها وإرشادها إلى طاعة زوجها ، فإن لم يكف فى هذا لم يجز تعديه إلى الضرب بغيره ؛

فإما صبر على أذاها ونشوزها ، وآثر الصبر على المفارقة بالطلاق ، وله فى ذلك أجر الصابرين ، وجزاء المحسنين ؛ وإما طلقها ليحفظ على نفسه دينه ، ولا يضارها بامساكها على كره منها .

وبهذا يتبين أن الإسلام لم يخالف سنته فى إنصاف المرأة بإباحة ضرب الناشزة : لأنه لم يبح منه إلا المس الرفيق ، وهو فى الحقيقة يقصد منه التنبيه لا الضرب ؛ ولأنه مع هذا نفر الرجال منه ، وجعل من يفعله من شرارهم ؛ ولأنه يقصد منه مصلحتها ، وأن يتقى به الفرقة بالطلاق ، وضرر الطلاق أكبر من ضرر مثل هذا الضرب . ويجب على النساء أن يهدئن من ثائرتهن ، وألا يجرين فى هذا مع عاطفتهن ؛ لأن المصلحة فوق العاطفة ، وحكم العاطفة كثيرا ما يضر : أما حكم المصلحة فهو نافع أبدا ، ولا يحصل منه ضرر لهن ولا لغيرهن . ويجب عليهن أيضاً أن يعرفن أن الإسلام حرم ضربهن ، ولم يبح إلا ضرب الناشزة مع كراهته له ، فكاد بهذا يحرم ضربهن مطلقا . وهذا ما أردت أن أدفعه أولا من الخطأ فى فهم إباحة ضرب الناشزة فى القرآن الكريم .

وإنى أبين بعد هذا كيف أبيح للرجل هذا الضرب على كراهته ، وكيف كان صاحبَ الحق فيه عند نشوزها : وبيان هذا أن الأسرة لا بد لها من رئيس يكون له الحكم فيها ، ويقوم بتدبير أمورها ، ويفصل فيما يحصل من نزاع بين أفرادها ؛ لأن الأسرة إنما هى دولة فى داخل دولة ، فلا بد لها من رئيس كالدولة التى توجد بداخلها ؛ وهذا الحق يجب أن يعطى فى الأسرة للرجل ؛ لأن هو الذى يقوم برعايتها ، ويسعى فيما يتطلبه وجودها ، فيجب أن يكون هذا الحق له دون غيره ؛ على أنه مع هذا أقوى على النهوض به ، وأقدر على احتماله ، وأصلح له من غيره ؛ وللرئيس حق تأديب مرءوسيه ، وهذا يشمل الأسرة كلها ، ولا يصح أن تخرج المرأة منها ، لتستقيم أمور الأسرة ، ولا يرى أحد من أفرادها أن له حق الخروج على رئيسها ، بل يدين كل فرد منها له بحق الطاعة ، ويذعن لحكمه إذا حكم ، ويخضع لتأديبه إذا أدب ، ولا يرى فى هذا حرجا فى نفسه ، أو حطا من كرامته ، لأن مصلحته فى هذا التأديب ، وحكم المصلحة فوق حكم العاطفة .

لا اكراه فى الدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن حسين

المدرس فى الأزهر

الدين مجموع أمور ثلاثة : إيمان ، وإسلام ، وإحسان .

(فالإيمان) أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

و(الاسلام) أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج بيت الله إن استطعت إليه سبيلا .

و(الإحسان) أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . هكذا أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل حين سأله عنها فى الحديث المشهور الذى رواه مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال الرسول فى آخر الحديث : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . فهل يتصور أن يحصل الاكراه فى أحدها أو فى مجموعها ؟ كلا .

الإيمان :

أما الإيمان فهو عقيدة وإذعان وتسليم ، والعقائد محلها القلوب ، ولا سلطان لأحد على القلوب إلا علام الغيوب : والدين من هذه الناحية ، ناحية العقيدة والاذعان والتسليم — أعنى الإيمان — أمر عام مشترك بين جميع الأمم من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين . فدعوة الرسل أجمعين تنصب على هذه العقيدة . عقيدة الإيمان بوجوب وجود الله ، ووحدانيته ، ونفى الشرك والوثنية بشكل قاطع لا مجال للشك والريب فيه .

والناظر فى قصص الرسل فى القرآن الكريم يجد هذا المعنى فى سهولة ويسر ، فما من رسول إلا دعا قومه للتوحيد ونبذ الوثنية . فالاكراه لا يجد له مسلكا إلى القلوب ، إذ لا سبيل لأحد على قلب أحد بالسيف ، فإن أكرهته واستجاب لك فإنما يستجيب لك بلسانه كاذبا تحت تأثير الضغط وخشية الهلاك ، وأنت لا تستطيع أن تكذبه لأنه لا سبيل لك إلى قلبه ووجدانه وشعوره وباطنه وسره ، كما وقع ذلك فى صدر الإسلام لبعض أحد أصحاب رسول الله مما سنقصه عليك فيما بعد . فالسبيل إلى العقيدة إنما هو البرهان الساطع والحجة العقلية وتوجيه أفكار الناس وعقولهم إلى آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ؛ ولذلك كانت دعوة الرسل كلهم مؤيدة بهذه البراهين الساطعة القاطعة « المعجزات » ، واقتضت حكمة الله جل شأنه أن تكون المعجزات متفاوتة مختلفة باختلاف حال الأمم ومناسبة لهم تمام المناسبة ، لأجل أن تؤدى رسالتها ، وتسلك سبيلها إلى القلوب من أقرب الطرق .

مثال ذلك معجزة السيد عيسى عليه السلام الظاهرة فى دعوته « إحياء الموتى » : فان الطب كثر فى زمنه وبلغ نهايته ، ولكن أقصى ما يستطيعه الطبيب الماهر بقواعد علمه وتجاربه هو معرفة الداء ووصف الدواء . فلما أرسل الله عيسى عليه السلام جعل معجزته من هذه الناحية — ناحية الطب — لكن أى طب هذا ؟ طب أذهب قلوب الأطباء وأطار ألبابهم وأذهلهم ، إذ من من الأطباء يستطيع إحياء الموتى ؟ فكانت المعجزة من ناحية علمهم ، لتسلك سبيلها إلى قلوبهم .

وموسى عليه السلام : كثر السحر فى زمنه كثرة مزعجة ، ونبغ السحرة نبوغا فائقا ، وكان فرعون يستند عليهم فى تثبيت دعائم عرشه ، ولذلك دعاهم لمعارضة موسى عليه السلام لزعمه أنه ساحر ، وأنهم أعلم منه بالسحر . فكانت معجزة موسى من هذه الناحية ، ناحية ما يعلمون ، لتبهرهم ؛ ولذلك كان السحرة أنفسهم أسرع القوم استجابة لموسى ، لأن المعجزة عرفت سبيلها إلى قلوبهم فآمنوا إيمانا لم يزعزعه تهديد فرعون إياهم بالعذاب المهين ، بل قالوا له فى شجاعة المؤمنين وصراحتهم « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض

ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى » . إى وربى لقد قالوا له هذا ، مع أنهم حديثو عهد بإيمان ، ولكنها العقيدة لا سبيل للإكراه عليها .

وسيد الخلق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه : بعث فى أمة عربية ، فى طبيعتها وسليقتها الفصاحة والبلاغة ، لا يجدون فى ذلك حرجا ولا مشقة ، وإنما هى طبيعتهم المرسلة ، وسجيتهم المطلقة ، لاعناء ولا جهد ، ولا تحضير ولا مقدمات : فكأن البلاغة تجرى فى دمائهم ، وتتردد مع أنفاسهم ، فهم فرسان هذا الميدان بلا منازع . فكانت معجزة الرسول من هذه الناحية : القرآن الكريم : بهرهم ، وأذهلهم ، وأدهشهم . وعلى لسان من جاء القرآن ؟ على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، فكانت الدهشة بالغة ، وكان الذهول مروعا .

وفى الواقع كان الطريق مختلفا : فهم من ناحية يعتقدون أنه من كلام البشر أو الجن ، وبنوا خصتهم فى معارضته على هذا الزعم الفاسد ، والقرآن من عند الله لا سبيل إلى معارضته ، ولكنهم عارضوه بعد التحدى ، على اعتقادهم فيه ، فتحداهم بعشر سور من مثله ، فعجزوا ، فتحداهم بسورة واحدة ، بل بأقصر سورة ، فعجزوا عجزاً ظاهراً ، وهم أصحاب هذا الشأن : البلاغة والفصاحة : فتنبه العقلاء إلى أن هذا لا بد من عند الله ، وأن صاحبه رسول ، مافى ذلك شك ولا ريب : فآمنوا من طريق المعجزة إيمانا لم يزعزحه ما صبه عليهم ، وهم المستضعفون ، صناديد قريش من ألوان العذاب ، مما لا يتحمله البشر .

وإليك بعض ما يحضرنا فى هذا الشأن :

هل أتاك نبأ بلال ، الرقيق الضعيف ، وما لاقاه من سيده من ضروب التعذيب والقسوة والوحشية مما هو فوق احتمال البشر ؟ كان يوثق يديه ورجليه ويرقده على حجارة مكة فى الصيف الصائف وفى شدة اليقظة ، بعد أن يجرده من ثيابه ، ثم يحمى حجراً كبيرا بالنار ، كأن حرارة الشمس فى إبان شدتها لا تكفيه ، ويضعه فوق صدره وبطنه ، فيسيل دمه الى أن

يصل الى درجة النزع : كل هذا لأجل أن يرجع عن عقيدته ، وهو حديث عهد بها ، فلم يرجع ، بل لم يسكت ، فكان يعبر عما فى أعماق قلبه من إيمان بقوله أثناء التعذيب الشديد : أحد أحد ! . وكانت كلمة الكفر الظاهرية باللسان ترضى سيده فيخفف عنه من هذا العذاب ، فلم يشأ أن يقولها . أرأيت أروع من هذا المثل الذى ضربه بلال فى التضحية فى سبيل العقيدة ! .

وهل قرأت فى التاريخ الإسلامى ما أصاب أسرة « ياسر » عمارا وأباه ياسرا ، وأمه سمية ؟ أما الأبوان فقد قتلا تحت العذاب ، ولم يرجعا عن عقيدتهما ولا باللسان ، وهما أول قتيلين فى الإسلام ، وأما عمار فقد كان شابا حدثا ، وقد رأى ما أصاب والديه ، وعلم أن مصيره مصيرهما ، فأعطاهما كلمة الكفر باللسان ، فهل كفر عمار ؟ كلا إطلاقا . اسمع ما يقوله الله فى هذا « من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » . واسمع ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال له بعض الصحابة : يا رسول الله إن عمارا كفر : « كلا إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه » . هذا قول الله وهذا قول رسوله ، وكلاهما صريح فى أن الاكراه لا يمس العقيدة وإن قال صاحبها ما ينافيها بلسانه . وفى بعض الأحاديث أن عمارا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى ، فجعل النبى يمسح عينيه وقال له : « مالك ، إن عادوا لك فعدلهم بما قلت » ، نعم إن هناك فرقا شاسعا بين مقام عمار ، ومقام والديه ؛ فهو قد أخذ بالرخصة ، وهما صدعا بالحق إلى أن ماتا تحت العذاب ، فمقامهما عند الله أرفع . ويدل على ذلك ما روى فى حادثة أخرى : أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول فى ، قال : أنت أيضاً ، فخلاه أى أطلق سراحه : وقال للآخر : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : ما تقول فى ، قال : أنا أصم ، فأعاد عليه ثلاثا ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما الأول فقد أخذ برخصة الله ، وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيئاً له » .

وهناك صهيب ، وخباب ، وسالم ، وجبر مولى الحضرمى وغيرهم ، كل له قصة ، وكل قد ضرب أرفع الأمثلة فى التضحية فى سبيل العقيدة . فتلك صور

إسلامية رائعة لو أردنا ذكرها لطال بنا القول ، وربما أفردنا لها مقالا خاصا . أرأيت معى ، مما قدمناه لك أن الاكراه لا يجد سبيله مع الإيمان .

الإسلام :

أما الإسلام ، وهو الانقياد الظاهرى لما جاء به الرسول من الشهادتين والصلاة الخ ؛ فله حالتان : إحداهما : أن يكون ناشئا عن العقيدة ، أعنى الإيمان ، فيكون أثرا من آثاره ، وهو الإسلام الصحيح المعتد به ، لأنه الموافق لما فى القلب ، فهذا حكمه حكم الإيمان لا يتصور فيه الإكراه أصلا ؛ لأنه ناشىء عنه وأثر من آثاره ؛ والثانية ألا يكون كذلك ، وهو إسلام غير صحيح لا يعتد به ، لأنه لم يوافق ما فى القلب كاسلام المنافقين ، فانهم أسلموا ظاهرا ، وقلوبهم مشبعة بالوثنية والشرك ، وكانوا يصلون كما يصلى المؤمنون ، ويصومون كما يصومون ، ويجلسون فى مجلس الرسول ويستمعون اليه ، ولكنهم كانوا فى كل ذلك كاذبين بشهادة القرآن « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

فهذا النوع من الإسلام لا يسمى فى الحقيقة دينا ، فهو خارج عن موضوع « لا إكراه فى الدين » . فسيان جاز فيه الإكراه أم لم يجز ، لأنه باطل من أساسه . وهذا النوع من الإسلام غير النوع الذى يكون قلب صاحبه خالياً من العقيدة : الإيمان ، ولكنه مستشرف له متطلع اليه ، وهو المشار اليه بقوله تعالى « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . فهو إسلام لم ينشأ عن الإيمان ، ولكن القلوب خالية ليست ملوثة بالشرك ، بل هى مترقبة دخول الإيمان . ومهما يكن من شىء فالإسلام الصحيح المعتد به شرعا لا يدخله الإكراه ، سواء كان ناشئا عن الإيمان بأن يكون متأخرا عنه ، أو يكون سبباً له ومدخلا اليه .

أما الإسلام الذى لا يعتد به كاسلام المنافقين ، فلا شأن لنا به لبطلانه من أساسه كما تقدم .

الإحسان :

أما الاحسان : فهو مقام المراقبة ، مراقبة العبد ربه كأنه يراه ، وهى مرتبة من أرفع المراتب فى العبادة ، ليس هناك أرفع منها إلا مقام المشاهدة ، على ما يقول الصوفية ، وقد أشار الحديث الشريف إلى أن للإحسان مرتبتين : إحداهما أرفع شأنا من الأخرى : فالأولى أن يعبد المؤمن ربه كأنه يرى الله : والثانية أن يعبده معتقدا أن الله يراه . وقد ضرب شراح الحديث لذلك مثلا يقربه إلى الأفهام : قالوا : إن الأجير إذا رأى المالك وقت العمل لاشك يبذل أقصى جهده فى العمل إرضاء للمالك ، وهذه هى المرتبة الأولى . فإذا لم يكن المالك حاضرا ، لكن الأجير يعتقد أنه مطلع عليه من شرفة منزله مثلا ، بذل جهدا مشكورا أيضا ، ولكنه أقل من اجتهاده فيما لو كان المالك حاضرا ، وهذه هى المرتبة الثانية . وهذه المراتب الرفيعة فى العبادة لا تكون قسرا ، وإنما ينساق المسلم اليها انسياقا ناشئا عن إيمانه . فلا إكراه فى الدين إيماناً وإسلاماً وإحساناً . كيف وقد قال الله تعالى « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقال « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

روى أنه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف ابنان تنصرا قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة ، فلزمهما أبوهما وقال : والله لا أدعكما حتى تسلما ! فأبيا ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الأنصارى : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر؟ فنزل قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » .

كلمات لأمراء المؤمنين

كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله عدى بن أرطاة : أما بعد فقد أمكنتك القدرة على المخلوق ، فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للرعية عندك .

وقال المنصور لولده المهدى ، وقد تولى الخلافة بعده : لا ترم أمراً حتى تفكر فيه ، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته . واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه .

فى البلاغة العربيـة :

قديمنا وجديد الناس . . .

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر الى المعهد العلمى بأم درمان

لم ينصفنا من يظن أنا ندافع عن القديم لأنه قديم ، وندافع عن السابقين من علمائنا عصبية منا لهم ، ونأخذ الطريق على المحدثين استهانة بهم وبآثارهم ، فما إلى ذلك قصدنا ، وكيف ، وقد كتبنا فى هذه المجلة فى عدد قريب نكشف عن بعض عيوب كتبنا القديمة ، وندعو الى التخلى عن هذه العيوب ، وإراحة الدارسين من همومها وأثقالها ؟ والحق أنا إنما ندافع عن القـــديم لأنه البناء المتماسك الذى لم يستطع بناء المحدثين أن ينهض بجانبه ، وأحيانا نمسك بالقديم مرغمين لأنا نتلفت فلا نجد فى جديد الناس ما يغنى غناءه ويسده مسده ، فلا نستطيع أن نوافق على هدم القديم ، وليس بين أيدينا جديد صالح ترتكز عليه بلاغتنا العربية . نعم فى هذا البناء عيوب ، ولكنه — مع ذلك — يؤوى ويظل ويستر ، أما بناؤكم فهو يقوم على أساس واهٍ ، لو أراد مستند إليه أن يمد يده ليساعده على النهوض لانهار البناء ، وبقى المستجير فى العراء .

والفكرة عندنا لا تزال كما كانت عند أسلافنا : يقول أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : « وليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق [1] » . ويقول أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى : « ولا نظرت إلى المتقدم فيهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه

(١) الكامل ص ١٨ ج ١ ط التجارية .

حظه ، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، وكل شريف خارجيا فى أوله . . . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه [1] » .

وإذا كان هذا فى الشعر واجبا فهو فى العلم أوجب ، فسبيلنا — إذن — أن ننصف العلم وحده . ثم أمضى الى القصد .

وقد انتهى بنا الحديث فى المثال السابق (هدم المجددين وبناؤهم) إلى هدم نظريتهم فى الاتكاء على (الإيهام) وجعله وسيلة الى إخراج بحث (شبه كمال الانقطاع) من البحث البلاغى ، وبينّا أن الإيهام لا يمنع العطف نحويا ، وإنما يمنعه بلاغيا ، وأكبر حجة على ذلك هذا البيت الذى اعتمدوا هم عليه ، فقد قلنا إنه بعد الفصل فيه إيهامان آخران ، ونحب أن نضيف اليوم أن علماءنا كانوا متنبهين إلى هذه الفكرة ، فقد ذكروا أن الإيهام يوجد فى كل من كمال الاتصال وشبهه ، وأن صاحب التلخيص إنما اقتصر على ذكره مع كمال الانقطاع لكثرته فيه ، بل قالوا إنه يكون فى الأقسام كلها . قال فى عروس الأفراح « ولك أن تقول الإيهام كما يدفع الفصل بين الجملتين اللتين بينهما كمال الانقطاع يدفعه بين اللتين بينهما كمال الاتصال ، وكذا غيره من الأقسام السابقة واللاحقة ، فليعتبره الناظر . والإيهام مشروط بأن لا يعارضه إيهام آخر » وذكر بعض الكاتبين تعليقا على قول الإيضاح « إما لدفع إيهام خلاف المقصود » قال : ووجوب الوصل فى هذا من جهة البلاغة لأنه يمكن دفع ذلك بالسكوت بين الجملتين أو بمعونة القرائن ، وهو إنما يكون فى كمال الانقطاع بين الجملتين كما فى المثال المذكور : « لا وأيدك الله » وقيل إنه يمكن اعتبار الوصل لدفع الإيهام فى كمال الاتصال أيضا كما

---

(٢) الشعر والشعراء ص ٨٠٧ ج ١ . التجارية .

تقول لمن سألك : هل تشرب خمرا : لا وتركت شربه . وقيل إنه يتعين الفصل فى كمال الاتصال مطلقا ويدفع الإيهام فى مثل هذا بطريق آخر فيقال : لا قد تركت شربه أو نحوه .

ثم نراهم يحاولون أن يخرجوا من دائرة البلاغة بحث كمال الانقطاع وبحث كمال الاتصال ويعتمدون على أن العطف أساسه المغايرة والمناسبة ، فنحن لانعطف إلا شيئين متغايرين متناسبين ، والمغايرة ألا يكون المعطوف نفس المعطوف عليه ولا جزءه ، تقول : جاء زيد نفسه أو جاء زيد زيد فلا تحتاج للعطف إذ لا مغايرة فيها ، بخلاف ما إذا قلت جاء زيد وابنه ، فالعطف لازم هنا لوجود المغايرة ، وكذلك تباين الشيئين يمنع من أن نضع بينهما علامة وصل لأنهما غير صالحين للاتصال ، ومن المتفق عليه أن كمال الانقطاع اختلاف السياق ، فهما كلامان ليست بينهما وحدة فليس معقولا أن يتصلا ، وعلى ذلك فليس هذا الموضع محل بحث بلاغى لأنه وجه واحد لا يمكن العدول عنه ، وأما كمال الاتصال ، وهو توكيد ومؤكد أو بدل ومبدل منه أو بيان ومبين ، فهو باب وحده : ذلك أن الاتحاد فيه فى السياق تام فطبيعى أنه سياق واحد فلا داعى للفصل فيه اذا أغنى عن ذلك شدة الاتصال .

هذا موجز ما قالوا ، وخلاصته أن الباحث فى الفصل والوصل يجب عليه أن يطرح عنه بعيدا هذين الموضعين ، لأن الفصل فى الأول واجب ، والوصل واجب فى الثانى ، والبلاغة إنما تبحث فى الجائز .

ولست واجدا شيئا من العناء فى الرد على هذا ، فان العطف جائز بين الخبر والإنشاء ، وقد نقل عن سيبويه جواز جاء زيد ومن عمرو ، وفى شرح بانت سعاد لابن هشام هذا الشاهد :

تناغى غزالا عند باب ابن عامر وكحل مآقيك الحسان بأثمد

ولا خلاف عندهم فى جواز هذا العطف فى نحو قوله تعالى « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ولا مانع عندى أن يجعل من عطف الإنشاء على الخبر العطف فى قوله تعالى « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون ، سلام قولا من رب رحيم »

وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ولا داعى لهذا البيان الطويل المعقد الذى ساقه أبو يوسف يعقوب السكاكى فى كتابه المفتاح موضحا وجه العطف هنا .

وأما كمال الاتصال فيحسبنا أن نقول لهم : إن هذه التوابع ليست توابع اصطلاحية ، ولذلك نرى علماءنا كانوا فى غاية الدقة حين قالوا « فوزانه وزان كذا » من توكيد أو بدل أو بيان ، على أننا نرى أن النص الأدبى الواحد يكون بيانا فيعطف مرة ولا يعطف أخرى ، قال الله تعالى فى سورة البقرة « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » وقال عز وجل فى سورة ابراهيم « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

ولعل من العجب أن يقول هؤلاء فى قوله تعالى « أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين » كان يمكن أن يعطف فيقول : وأمدكم يا لله تحلونه عاما وتحرمونه عاما ! .

بقى لديهم شبه كمال الانصال ، وهو أولى الأقسام عندهم بأن يخرج عن البحث البلاغى لأن « المسألة - إذن - ليست مسألة سؤال وجواب واستئناف وبتاع ! ومن المؤسف أن يقع فيه عبد القاهر نفسه » كما يقولون . وإنما المسألة أن هنا كلامين لمتكلمين مختلفين حقيقة أو حكما ، وما دام الأمر كذلك فالفصل واجب ، لأنه لا يعطف كلام شخص على كلام شخص آخر ، وإذا أراد القارىء أن يفهم هذا الباب كله من أوله إلى آخره فما عليه إلا أن يفهم هاتين الكلمتين اللتين قدمناهما : قالوا « إذا كان الخطاب بين متعددين حقيقة فهذا أول مواضع الفصل وهو أسلوب الحوار - ولم يعطونا فكرة عن أسلوب الحوار هذا - والأصل فى الحوار أن يكون بين شخصين وقد يقع ليمثل حالتين مختلفتين لشخص واحد ، فالحوار الذى نقصده هنا هو الذى يقع بين متعددين حقيقة أو حكما : حقيقة هذا أول مواضع الفصل ، حكما فهذا أول الكلام فى الفصل والوصل ، والأصل فيه أنه حيثما وجد التقابل بين كلامين فهو أول مواضع الفصل ، وحيثما وجد تكامل بينهما كان ذلك أول مواضع الوصل ، وإذا حدث اللبس أو التردد بين هذين الطرفين دخل عمل علم

البلاغة : وتعدد السياق اعتبارا يدخل فيه شبه كمال الاتصال وشبه كمال الانقطاع . وأما فى كمال الانقطاع فإما أن يتعدد السياق وإما أن يتحد ، فاذا تعدد السياق فهما كلامان ، وإذا وجدت بينهما مناسبة فالفصل ، وإذا اتحد فاما أن يتعدد المتكلمان حقيقة أو اعتبارا وحينئذ نستغنى عن الوصل ونفصل ، وأما أن يتحد المتكلم بالجملتين وحينئذ يجب الوصل » .

وبهذا البيان اللطيف ، وبهذا التقعيد الرائع ، نخلص من هذا الباب الذى كانت (تسكب فيه العبرات) ولكننا فقط نحتاج إلى جهود جديدة تبين للناس كيف تدخل هذه الأقسام كلها تحت أسلوب واحد ، بعضه فرضى . والحق أنى - إلى هنا - وقفت ، ولست بمستطيع أن أزيد بيانا أو إيضاحا ، ولعل فى العلماء المتعمقين فى الدراسة من يستطيع أن يفهمنا هذه القاعدة الجديدة لهذا الباب المسكين ؟

العدل فى الاسلام

بث الاسلام فى قلوب أهله روح العدل بين الناس ، وضرب النبى صلى الله عليه وسلم المثل العليا فيه ، وائتم به صحابته من بعده ، حتى أصبحت محاكمهم مضرب الأمثال إلى يومنا هذا . ناهيك أن القضاة فى عهده الأول كانوا يساوون الحاكمين بالرعية فى مجالس القضاء . وهذا ما لم يحدث له نظير فى العالم إلى اليوم .

من ذلك أن الأشعث بن قيس من كبار سادات العرب دخل على شريح القاضى فى مجلس القضاء . فقال له شريح : مرحبا وأهلا بشيخنا وسيدنا ! وأجلسه معه .

فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث . فقال له شريح : قم يا أشعث فاجلس مجلس الخصم ، وكلم صاحبك . قال الأشعث : بل أكلمه من مجلسى . فقال له القاضى : لتقومن أو لآمرن من يقيمك . فقال له الأشعث : أثم ما ارتفعت . فقال له شريح : رأيت ذلك ضرك ؟ قال لا . قال شريح : فأراك تعرف نعمة الله على غيرك ، وتجهلها على نفسك .

منزلة السنة من الدين

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى

الفصل السادس

تقسيم السنة الى ما ورد فيه نص كتاب والى ما لم يرد فيه نص كتاب

قال الإمام الشافعى فى رسالته ص ٣٢ :

(البيان الرابع)

قال الشافعى : كل ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه كتاب ، وفيما كتبنا فى كتابنا هذا من ذكر ما منّ الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة ـ دليلٌ على أن الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مع ما ذكرنا مما افترض الله على خلقه من طاعة رسوله ، وبين فى موضعه الذى وضعه الله به من دينه — الدليل على أن البيان فى الفرائض المنصوصة فى كتاب الله من أحد هذه الوجوه :

منها ما أتى الكتابُ على غاية البيان فيه ، فلم يحتج مع التنزيل فيه الى غيره .

ومنها ما أتى على غاية البيان فى فرضه ، وافترض طاعة رسوله ، فبيّن رسولُ الله عن الله : كيف فرضُهُ ، وعلى من فرضه ، ومتى يزول بعضه ويثبتُ ويجبُ .

ومنها ما بيّنه عن سنة نبيه ، بلا نص كتاب .

وكل شىء منها بيان فى كتاب الله .

فكل من قبِل عن الله فرائضه فى كتابه ، قبِل عن رسول الله سننه ،

بفرض الله طاعة رسوله على خلقه ، وأن ينتهوا الى حكمه . ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل ، لما افترض الله في طاعته .

فيجمع القبول لما في كتاب الله ولسنة رسول الله القبول لكل واحد منهما عن الله ، وإن تفرقت فروع الأسباب التي قبل بها عنهما ، كما أحل وحرم ، وفرض وحد : بأسباب متفرقة ، كما شاء ، جل ثناؤه ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ٢١ / الأنبياء / ٢٣ . اهـ .

وقال أيضا ص ٢٢ :

ومنه (أي من البيان) ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس لله فيه نص حكم ، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والانتهاء الى حكمه ، فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل . اهـ .

وقال في ص ١٠٨ :

قال الشافعي : فيما وصفتُ من فرض الله على الناس اتباع أمر رسول الله : دليلٌ على أن سنة رسول الله إنما قبلت عن الله ، فمن اتبعها فبكتاب الله اتبعها ، ولا نجد خبرا ألزمه الله خلقه نصّاً بيّناً إلا كتابه ثم سنة نبيه .

فإذا كانت السنة كما وصفتُ ، لا شبهَ لها من قول خلقٍ من خلق الله ، لم يجز أن ينسخها إلا مثلها ، ولا مثل لها غير سنة رسول الله : لأن الله لم يجعل لأحد بعده ما جعل له ، بل فرض على خلقه اتباعه ، فألزمهم أمره ، فالخلق كلهم له تبع ، ولا يكون للتبع أن يخالف ما فرض عليه اتباعه ، ودن وجب عليه اتباع سنة رسول الله لم يكن له خلافها ، ولم يتم مقام أن ينسخ شيئا منها . اهـ .

وقال في ص ١٩٧ :

فلو أن امرءا لم يُلم لرسول الله سنة مع كتاب الله إلا ما وصفنا ، مما سنّ رسول الله فيه معنى ما أنزله الله جملة ، وأنه إنما استدرك ما وصفت من فرض الله الأعمال ، وما يحرّم وما يُحلّ ، ويُدْخلُ به فيه ، ويخرج منه ، ومواقيته ، وما سكت عنه سوى ذلك من أعماله — قامت الحجة عليه بأن سنة رسول الله إذا قامت هذا المقام مع فرض الله في كتابه مرة أو أكثر : قامت كذلك أبدا . اهـ

وقال فى ص ٩١ :

وسنن رسول الله مع كتاب الله وجهان : أحدهما نص كتاب فاتبعه رسول الله كما أنزل الله ، والآخر جملةٌ بيّن رسول الله فيه عن الله معنى ما أراد بالجملة ، وأوضح كيف فرضها ، عاماً أو خاصا ، وكيف أراد أن يأتى به العبادُ : وكلاهما اتبع فيه كتاب الله .

قال : فلَمْ أعلم من أهل العلم مخالفا فى أن سنن النبى من ثلاثة وجوه ، فاجتمعوا منها على وجهين ، والوجهان يجتمعان ويتفرعان : أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبيّن رسول الله مثل ما نص الكتاب : والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب ، فبيّن عن الله معنى ما أراد . وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما .

والوجه الثالث ما سنّ رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب .

فمنهم من قال : جعل الله له ، بما افترض من طاعته ، وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه ، أن يَسُنَّ فيما ليس فيه نص كتاب .

ومنهم من قال : لم يَسُنَّ سنّة قط إلا ولها أصل فى الكتاب ، كما كانت سنته لتبيين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ما سنّ من البيوع وغيرها من الشرائع ، لأن الله قال « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » النساء / ٢٩ ، وقال : « وأحلّ الله البيع وحرّم الربا » البقرة / ٢٧٥ : فما أحلّ وحرّم ، فإنما بيّن فيه عن الله ، كما بيّن الصلاة .

ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله ، فأُثبِتَتْ سنتُه بفرض الله .

ومنهم من قال : ألقِى فى رُوعه كلُّ ما سنّ ، وسنتُه الحكمةُ : الذى ألقِى فى روعه عن الله ، فكان ما ألقِى فى روعه سنتَه .

أخبرنا عبد العزيز عن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الروح الأمين قد ألقى فى رُوعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فأجملوا فى الطلب » .

فكان مما ألقى فى روعه سننه ، وهى الحكمة التى ذكر الله ، وما نزل به عليه كتاب فهو كتاب الله ، وكلٌّ جاءه من نعم الله ، كما أراد الله ، وكما جاءته النعم ، تجمعها النعمة ، وتتفرق بأنها فى أمور بعضها غير بعض ، ونسأل الله العصمة والتوفيق .

وأىُّ هذا كان ، فقد بيّن الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ، وأنْ قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه فى دينهم ، وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول الله معانى ما أراد الله بفرائضه فى كتابه ، ليعلم مَن عَرف منها ما وصفنا أن سنته صلى الله عليه وسلم إذا كانت سنة مبيّنة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب ـ أخرى (أى سنة أخرى) ؛ فهى كذلك أين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال . اهـ .

وجاء فى فتح البارى لأستاذ الدنيا فى علم الحديث الحافظ ابن حجر العسقلانى الجزء الثالث عشر ص ٢٠٣

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال ابن القيم فى الرد على من رد خبر الواحد إذا كان زائدا على القرآن ما ملخصه :

السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه :

أحدها ـ أن توافقه فى كل وجه فيكون من توارد الأدلة .

ثانيها ـ أن تكون بيانا لما أريد بالقرآن .

ثالثها ـ أن تكون دالة على حكم سكت عنه القرآن ؛ وهذا الثالث يكون حكما مبتدأ من النبى صلى الله عليه وسلم فتجب طاعته فيه . ولو كان النبى صلى الله وسلم لا يطاع إلا فيما وافق القرآن لم تكن له طاعة خاصة ، وقد قال تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء / ٨٠

الفصل السابع

إنكار الأئمة على من رد الحديث الصحيح

قال عالم الشام جمال الدين القاسمي في كتابه قواعد التحديث ص ٢٦٣ :

وقال الحميدي : سأل رجل الشافعي عن مسألة فأفتاه وقال : قال النبي صلى الله عليه وسلم كذا وكذا : فقال الرجل : أتقول بهذا يا أبا عبد الله ! فقال الشافعي : أرأيت في وسطي زنّاراً ؟ أترائي خرجت من الكنيسة ؟ أقول قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقول لي أتقول بهذا ! أروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أقول به ؟ ا هـ .

وقال في ص ٣٩٢ :

وصلى رجل ممن يكتب الحديث بجنب ابن مهدي ، فلم يرفع يديه ، فلما سلّم قال له : ألم تكتب عن ابن عيينة حديث الزهري عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه في كل تكبيرة ؟ قال : نعم ! قال : فماذا تقول لربك إذا لقيك ، في تركك لهذا وعدم استعماله ؟ !

وقال في ص ٢٨٧ وهو في رسالة الشافعي ص ٤٥٠ :

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه في رسالته « أخبرني أبو حنيفة بن سماك ابن الفضل ، قال أخبرني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح الكعبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح : « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين : إن أحب أخذ العقل ، وإن أحب فله القود » : قال أبو حنيفة فقلت لابن أبي ذئب : أتأخذ بهذا يا أبا الحارث ؟ فضرب بصدري وصاح عليّ صياحا كثيرا ، ونال مني ، وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول أتأخذ به ! نعم آخذ به ؛ وذلك الفرض عليّ وعلى من سمعه ، إن الله تبارك وتعالى اختار محمدا صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه ، واختار لهم ما اختار له ، وعلى لسانه ، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين ، لا مخرج لمسلم من ذلك . قال : وما سكت حتى تمنيت أن يسكت . ا هـ .

وقال العارف الشعراني في مقدمة ميزانه : قال الامام محمد الكوفي : رأيت الإمام الشافعي رضي الله عنه بمكة وهو يفتي الناس ، ورأيت الإمام أحمد واسحق ابن راهويه حاضرين ، فقال الشافعي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وهل ترك لنا عقيل من دار » فقال اسحق روينا عن الحسن وإبراهيم أنهما لم يكونا يريانه ، وكذلك عطاء ومجاهد ! فقال الشافعي لإسحق : لو كان غيرك موضعك لفركت أذنه ! أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول قال عطاء ومجاهد والحسن ؟ وهل لأحد قول مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة ؟ بأبي هو وأمي ! . اه

وقال ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم ـ الجزء الثاني ص ١٨٩ :

حدثنا محمد بن عبد الملك قال حدثنا ابن الاعرابي قال حدثنا سعدان بن نصر قال حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر فقال له ابن عباس : اتركهما ، فقال : إنما نهي عنهما أن يتخذ سنة ، فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد صلاة العصر فلا أدري أتعذب عليها أم تؤجر ، لأن الله تبارك وتعالى قال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الأحزاب — ٣٦ اه .

وقد رواها الإمام الشافعي بزيادة بيان في رسالته ص ٤٤٣

أخبرنا مسلم وعبد المجيد عن ابن جريج ان طاوسا أخبره أنه سأل ابن عباس عن الركعتين بعد العصر فنهاه عنهما ، قال طاوس : فقلت له : ما أدعهما : فقال ابن عباس : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

فرأى ابن عباس الحجة قائمة على طاوس بخبره عن النبي ، ودله بتلاوة كتاب الله على أن فرضا عليه ألا تكون له الخيرة إذا قضى الله ورسوله أمرا .

وطاوس حينئذ إنما يعلم قضاء رسول الله بخبر ابن عباس وحده ، ولم يدفعه طاوس بأن يقول : هذا خبرك وحدك ، فلا أثبته عن النبي ، لأنه يمكن أن تنسى . اه .

وقال أيضا ص ٤٤٦ :

أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن معاوية بن أبي سفيان

باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ، فقال له أبو الدرداء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذا : فقال معاوية : ما أرى بهذا بأسا ! فقال أبو الدرداء : من يعذرنى من معاوية ! أخبره عن رسول الله ويخبرنى عن رأيه ! لا أساكنك بأرض !

فرأى أبو الدرداء الحجة تقوم على معاوية بخبره ، ولما لم ير ذلك معاوية فارق أبو الدرداء الأرض التى هو بها ، إعظاما لأن ترك خبر ثقة عن النبى .

وأخبرنا أن أبا سعيد الخدرى لقى رجلا فأخبره عن رسول الله شيئا ، فذكر الرجل خبرا يخالفه ، فقال أبو سعيد : والله لا آوانى وإياك سقف بيت أبدا !

قال الشافعى : يرى أن ضيقا على المخبَر أن لا يقبل خبره ، وقد ذكر خبرا يخالف خبر أبى سعيد عن النبى ، ولكن فى خبره وجهان : أحدهما يحتمل به خلاف خبر أبى سعيد ، والآخر لا يحتمله .

أخبرنا من لا أتهم عن ابن أبى ذئب عن مخلد بن خفاف قال : ابتعت غلاما فاستغللته ، ثم ظهرت منه على عيب ، فخاصمت فيه عمر بن عبد العزيز فقضى لى بردّه وقضى على برد غلته ، فأتيت عروة فأخبرته فقال أروح اليه العشية فأخبره أن عائشة أخبرتنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى مثل هذا أن الخراج بالضمان . فعجلت الى عمر فأخبرته ما أخبرنى عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : فما أيسر على فى قضاء قضيته ، الله يعلم أنى لم أرد فيه إلا الحق ، فبلغنى فيه سنة عن رسول الله ، فأرد قضاء عمر ، وأنفذ سنة رسول الله . فراح اليه عروة ، فقضى لى أن آخذ الخراج من الذى قضى به علىّ له .

أخبرنى من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبى ذئب قال : قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية ، برأى ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، فأخبرته عن النبى بخلاف ماقضى به ، فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبى ذئب ، وهو عندى ثقة ، يخبرنى عن النبى بخلاف ما قضيت به ؛ فقال له ربيعة : قد اجتهدت ومضى حكمك : فقال سعد : واعجبا ! أنفذ قضاء سعد بن أم سعد وأرد قضاء رسول الله ! بل أرد قضاء سعد بن أم سعد وأنفذ قضاء رسول الله ! . فدعا سعد بكتاب القضية فشقه ، وقضى للمقضى عليه. اه .

باب الأسئلة والفتاوى

موالاة المستعمرين خروج من الدين

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأستفتاء الآتى :

شعب طرابلس الغرب شعب عربى مسلم كان قد منى بعدوان الإيطاليين واستعمارهم حقبة من الزمن ، تخللها جهاد صادق من لدنه فى سبيل الشرف والحرية . ثم شاءت عدالة الله أن تكسر إيطاليا وتنفض يدها من هذه البلاد العربية المجاهدة ، ولكن شاءت الأقدار كذلك أن تزعم الدول الكبرى أنها صاحبة الشأن فى تقرير مصير هذه البلاد العربية ، وأنها ستختبر لذلك رغبة أهلها وتسألهم عن مطالبهم . وما من شك فى أن مطالب أهل هذه البلاد الاسلامية تنحصر فى التخلص من كل نفوذ أجنبى ، والتمتع بالحرية والسيادة الكاملتين تحت جناح الإسلام والعروبة .

فما حكم الشريعة الإسلامية على أفراد يدعون أنهم عرب مسلمون ، ويشذون فى الوقت ذاته عن ميول شعبهم المشروعة ، ويعلنون عن رغبتهم فى أن تتولى الإشراف على بلادهم حكومة أجنبية مستعمرة لا تصلها بالإسلام والعروبة صلة ؟

والمرجو أن تعلنوا رأى الشريعة فى هؤلاء الأفراد .

على رجب
رئيس حزب الاتحاد المصرى الطرابلسى

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد، فقد قال الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . وقال تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » . « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » . « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

هذه الآيات وغيرها من القرآن الكريم ، أوجب الله بها على المؤمنين أن يعتصموا بحبله المتين ، وأن يتحدوا فيما بينهم على حفظ دينهم وتركيز سلطته وإقرار كلمته ، ونهاهم عن الاختلاف والتفرق ، وحذرهم عاقبة ذلك من الفشل وذهاب الريح وتلاشى السلطان .

ولما كانت موالاة بعض المؤمنين لغيرهم من أعداء الدين سبيلا للتفرق ، وخروجا على وحدة المسلمين ، وسببا للفتنة ، عنى القرآن فى غير آية بنهى المؤمنين عن اتخاذهم أولياء من الكافرين ، يلقون إليهم بالمودة ، ويعملون معهم على ما يمكنهم من تحقيق أغراضهم من التسلط على المسلمين وإضعاف شوكتهم فى بلادهم ؛ وقرر أن هذا الصنيع مشاقة لله ولرسوله ، واتباع لغير سبيل المؤمنين ، الذى هو الوحدة والاعتصام بحبل الله ، واعتبره خيانة لله وللرسول ، وخيانة للأمانات التى ناط الله رعايتها بالمؤمنين ؛ وقرر أن هذا الصنيع أيضا لا يمكن أن يوجد مع الايمان بالله واليوم الآخر ، وأن دعوى الإيمان ممن يخرج على أمته

ويعاون من حاد الله ورسوله ، دعوى كاذبة لا قيمة لها عند الله ، ولا وزن لها عند جماعة المؤمنين .

هذا ماتدل عليه هذه الآيات الواضحة ، وبها كان الاتحاد بين المسلمين من أعظم الواجبات الدينية عليهم ، وكان الاختلاف والتفرق من أكبر ما نهى الله عنه ، وكانت موالاة الاعداء والتعاون معهم فيما يضر المسلمين ويزلزل سلطانهم ، بابا من أبواب الكفر والخروج من الدين .

وفى ضوء هذا الأصل الذى يقرره القرآن الكريم للاحتفاظ بالكيان الاسلامى ، نستطيع أن نقرر أن هؤلاء الأفراد الذين يدعون أنهم عرب مسلمون ويشذون فى الوقت ذاته عن ميول شعبهم المشروعة فى التخلص من كل نفوذ أجنبى ، والتمتع بحريتهم وسيادتهم الكاملتين ، ويعلنون عن رغبتهم فى أن تتولى الاشراف على بلادهم حكومة أجنبية مستعمرة لاتصلها بالاسلام والعروبة صلة : نستطيع أن نقرر أنهم يخرجون بذلك على الدين ، ويفرقون كلمة المسلمين ، ويحدثون الفتن التى يتذرع بها أرباب الاستعمار ويدخلون بها بلاد الاسلام ، فيغتصبون حقوقهم المشروعة ، ويبدلون عزتهم ذلة ومهانة ، وقوتهم ضعفاً واستكانة .

وقد صرح القرآن بأن أمثال هؤلاء لا ينجيهم من الوعيد الشديد ما يدعونه من أنهم يتحامون بذلك شرا قد ينزل بهم ، أو يتوخون مصلحة تصل اليهم : وقرر أن ذلك ليس إلا انتحالا لأعذار موهومة ، وارتكانا لشبه باطلة يزينها ضعف الإيمان وابتغاء عرض الحياة الدنيا ، ويقول فى شأنهم - بعد النهى عن اتخاذ اليهود النصارى أولياء ، وبعد تقرير أن من يتولاهم ملحق بهم ومعدود منهم - يقول « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » .

هـــذا هو حكمهم عند الله وفى نظر الدين . وترى اللجنة بعد هذا أن الدين يوجب على المسلمين عامة وعلى مسلمى طرابلس خاصة ، أن يكافحوا هذا الصنف من الناس الذى منيت به الشعوب الإسلامية فزعزع سلطانها وأطمع الأعداء

فيها ، فأخذوا ينتقصون أرضهم من أطرافها ، ويدخلون عليهم من كل باب ، حتى صارت بلاد المسلمين طعمة للآكلين ، وغرضا للمستعمرين .

ولو أن المسلمين تنبهوا الى هـــذا الواجب ، وكافحوا هذا الوباء الاجتماعى الذى نبت فيما بينهم ، وطهروا بلادهم من جراثيمه ، لاحتفظوا بعزتهم وسلطانهم ، ولتمتعوا بحريتهم وسيادتهم ، ولكان لهم ذلك المجد الذى تقلص عنهم بموقف أمثال هؤلاء الخونة الآثمين . . ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، والسلام على من اتبع الهدى .

المرأة بين طاعة الزوج والوالد

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

الزوجة فى عصمة زوجها هل لوالدها حكم عليها ؟ وأيهما - أى الزوج والأب - أحق بالطاعة إذا كانت الزوجة فى زيارة عند أهلها وأمرها زوجها بالسفر معه وأبى والدها ؟ نرجو الإفادة .

يونس محمود شعراوى

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على السؤال ، وهى تفيد بأنه قد سئل شيخ الاسلام ابن تيمية فى امرأة تزوجت وخرجت عن حكم والديها فأيهما أفضل : برها لوالديها أو مطاوعة زوجها ؟ فأجاب رحمه الله بما خلاصته :

إن المرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك لها من أبويها ، وطاعة زوجها

عليها أوجب : قال الله تعالى : « فالصالحات قانتات — أى مطيعات لله ولرسوله ولأزواجهن — حافظات للغيب بما حفظ الله » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها — دخلت من أى أبواب الجنة شاءت » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » وبلفظ آخر « لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحقوق » إلى غير ذلك من الأحاديث التى أوردها رحمه الله . إلى أن قال : فليس للمرأة أن تخرج من منزل زوجها إلا بإذنه سواء أمرها أبوها أو أمها أم غير أبويها باتفاق الأئمة . وإذا أراد الرجل أن ينتقل بها إلى مكان آخر مع قيامه بما يجب عليه وحفظ حدود الله فيها ، ونهاها أبوها عن طاعته فى ذلك ، فعليها أن تطيع زوجها دون أبويها : فإن الأبوين هما ظالمان ليس لهما أن ينهياها عن طاعة مثل هذا الزوج . أما إذا أمرها أبواها أو أحدهما بما فيه طاعة لله مثل المحافظة على الصلوات وصدق الحديث أو أداء الأمانة ، ونهياها عن تبذير مالها أو إضاعته ونحو ذلك مما أمرها الله ورسوله ، أو نهاها الله ورسوله عنه ، فعليها أن تطيعهما فى ذلك ولو كان الأمر من غير أبويها ، فكيف إذا كان من أبويها ؟ .

كذلك إذا نهاها الزوج عما أمر الله أو أمرها بما نهى الله عنه ، لم يكن لها أن تطيعه فى ذلك : فان النبى صلى الله عليه وسلم قال « إنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . وليس للمرأة أن تطيع زوجها أو أحد أبويها فى معصية الله ، فإن الخير كله فى طاعة الله ورسوله ، والشر كله فى معصية الله ورسوله .

ومن هذا يعلم أن حق الزوج أعظم ، وطاعته أوجب ، فيما تجب الطاعة فيه مما ليس بمعصية الله ورسوله . والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

خدم البيوت

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

على الرغم من أن الدين الإسلامى يوصى بمعالى الأمور، ويبغض فى سفسافها وينكر على الناس أن يتنزلوا فى سلوكهم، فإننا نرى أن ضرورة العيش تقضى فى بعض الأحايين أن يكون هنالك تفاوت فى درجات الأشخاص ومراتبهم، لحاجة اختلاف الأوضاع والمنازل... وليس فى ذلك كله من ضرر ولا غبن، حيث إن الدافع إليه ما يحتمه واجب المعونة العمرانية، الذى توصى به نواميس هذا الكون، وقد أقامه سبحانه على أساس تبادل المنافع، والإنسان مدنى بالطبع — كما يقول ابن خلدون — لأنه لا يمكنه أن يكون طبيبا ومهندسا ونجارا وبناء وطاهيا وخبازا وغير ذلك فى آن واحد ليكتفى حاجته بنفسه، ويقوم بأموره دون احتياج إلى سواه...

والخدمة فى البيوت من المشاكل الاجتماعية التى تستوجب من المصلحين أن يولوها شيئا من عنايتهم، وليس ذلك من ناحية إعدادهم لمباشرة هذه المهنة، والقيام بها على أكمل الوجوه وأحسنها.. وإن كانت الأمم الراقية تعد لهم المدارس ليتخرجوا منها أساتذة فى فن الخدمة، وليوفروا على سعادة المنزل، وإحاطته بأسباب الرفاهة والسرور، ولكن من ناحية أخرى هى ناحية وضع الحد اللائق بما يصح أن يكون بينهم وبين مخدوميهم من وشائج صحيحة، وصلات قوية، يمكن بها أن يتوفر هدوء الخاطر — على الأقل — بين طرفين تمس نظم الحياة إلى ارتباطها.

ولعل وزارة الشئون أحست بذلك كله فخطت إليه بعض الخطوات، وهى وإن لم تكن كل ما يجب أن يكون، إلا أنها بعض ما كان يجب أن يكون؛ لأنها تتناول ناحية خاصة هى الاحتفاظ بالحقوق المدنية للخادم.

والقرآن الكريم يعنى بهذه المشكلة بشكل أشمل وأوسع « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون » والمفسرون يقولون إن المراد بما ملكتهم الأيمان فى الآية ، العبيد والخدم ، وكأنه تعالى لم يجعل هذا التفضيل إلا للابتلاء والامتحان ، وإلا فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . . والأجدر بالمخدومين أن يردوا فضل رزقهم على خدمهم فهم فيه سواء ، حتى لا يكون هذا جحودا لنعمة الله عليهم ، وكفرنا بإيثاره إياهم .

سبحان من لو شاء سوّى بيننا وأدال منك فقد أطلت عذابى !

وكان صلى الله عليه وسلم يردف غلامه معه على الدابة ، ويوصيه وينصحه ويخاطبه خطابا لا يشعره معه بالذلة والمهانة ، ويقول « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس . . . ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، وهو لا يرضى أن تقوم تلك الصلة على غير الأخوة والمساواة فى الحقوق والمعاملة . فأين ذلك كله مما نحن عليه اليوم ؟ لا يكاد يمر يوم من الأيام لا نسمع فيه بحوادث إجرامية يندى لها وجه الكرامة والأخلاق ، مما يدل على أن الارتباط بين أرباب البيوت والخدم لم تعد شعرة من شعراته متماسكة تماسك الاتصال القائم على الائتلاف والحب . والسبب فى هذا لا يرجع إلى ضن الأسياد بالأجرة ، وشحهم بأن يستوفوا الخدم حقوقهم كاملة غير منقوصة فحسب : إنما هو يرجع — مع هذا — إلى سوء المعاملة . وكأن تلك الوصية التى وردت فى الحديث « فمن كان أخوه تحت يده الخ » كانت تنبؤاً بما سيكون ! . فان الذى نعرفه أن كثيرا من المخدومين جروا على هذا السنن ؛ لا يؤكلون خدمهم إلا من أكل الكلاب ، كما لا يلبسونهن إلا بالى الثياب . أما المبيت فحدث عنه ولا حرج . افتراش للغبراء ، والتحاف بالسماء ، فوق سطح البيت ، أو الطابق السفلى منه . وقد ثبت أن سوادا عظيما من مرضى الأمراض الصدرية من هؤلاء الذين أعوزتهم رحمة الرحماء ، وتخلت عنهم عدالة القضاء ، وفقدوا من دنياهم أسباب الهناء ، وهكذا تودى بالمجتمع عوامل الهدم ، ومعاول الفتك والتدمير .

ولا أزيدك معرفة بكلمة « يا ولد ياخدام » تلك التى لا يلذ لصاحبه أن يخاطبه بغيرها حين يطلب منه أن يجىء أو ينصرف، وربما كان مؤدبا معه إذا كان من أولئك الذين يكتفون بها دون أن يردفوها بكلمات أخرى من كلمات المهانة والتحقير . . .

ومن المخجل المؤسف أن بعضا ممن يعاملون الخدم بهذه الصفحية الخلقية يبيحون لهم أن يخالطوا نساءهم وبناتهم بحجة أنهم خدم ، وأن ذل الخدمة يكسر من شرتهم ويطفىء من حميتهم ، ويسكن من لوعتهم ، فلا تحدثهم نفوسهم بشر ، ولا يدور بخواطرهم سوء . فإذا قلت لهم إن الدين يحرم هذا السلوك ، قالوا ضرورة العمل ، وذل الخدمة ، وأقاموا لك ألف دليل ودليل على أن « هذا الولد » مؤدب وابن حلال . !! وأن بيوتهم لا تحتوى إلا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . . وأحب أن يتدبر أرباب « البيوت » هذه المسألة على الخصوص ، مسألة « فوضى الاختلاط » القائمة بين الخدم — بنين وبنات — وبين نسائهم وأبنائهم ، فإنى كنت أريد أن أجعل منها وحدها موضوعا لولا أنى خفت أن أكون قاسيا ، وليس من حصافة الواعظ ، ولا من لباقة المصلح ، أن يعالج الأمور بالقسوة ، أو يداوى العلل بالعنف . . . ووددت لو يرجع المسلمون الى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإنه ما ترك فى ذلك صغيرة ولا كبيرة إلا بينها ، وأوضح معالمها ، وجعلها كالشمس حين ترسل أشعتها على هذا الكون فتضفى عليه النور والضياء . . . وإذا كان بعد هذا من زيادة فى موضوع « خدم البيوت » فهو أن يفهم جماعة الأرستقراطيين أن الدين لا يعترف بنظام الطبقات ، ولا يفرق بين اليد العليا واليد السفلى ، إلا بمقدار ما يرغب فى الفضل ويحبب فى المزيه ، حثا للهمم ، واستنهاضا للعزائم ، وذهابا للخمول الى حيث لا يكون فى نفوس المسلمين « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . وأن الضرورة الاجتماعية هى التى جعلت هذا التفريق فى المنازل ، فإذا خادم ومخدوم ، وآخذ ومعط . . .

والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ذكرى مرور خمسين سنة

الشيخ جمال الدين الأفغانى

مصلح دينى وزعيم سياسى

لحضرة الأستاذ محمود الشرقاوى

فى اليوم التاسع من شهر مارس الماضى يتفق مرور خمسين سنة على وفاة جمال الدين الأفغانى .

ومن حق الأزهر على نفسه ، ومن حقه على أهله وعلى نهضته المرجوة ، أن يدرس وأن يطيل الدرس ، وأن يتأمل فيطيل التأمل ، فى حياة هذا النفر القليل من الأبطال الذين أهابوا بالحياة الدينية أن يفيق أهلها مما كانوا فيه من فتور يشبه الموت ، ومن تزمت يشبه الجمود ، ومن سكون يشبه العدم ، ومن وقوف بهذه الحياة الدينية عند ما انتهت إليه فى أيام لم تكن أزهر الأيام لهذه الحياة الدينية ، ولا أقواها على الإنتاج ، بل لعلها أبعد ما تكون عن الإنتاج المفيد ، وعن القوة أو القدرة على التفكير المستقيم والفهم السليم ، أو عن قبول هذا التفكير المستقيم ، لو أنه وجد ممن يقدر عليه فى عصرهم أو فى غير عصرهم .

ومن هؤلاء الأبطال القليلين الذين أهابوا بهذه الحياة الدينية أن يخرج بها أهلها من هذا الضيق والتزمت : جمال الدين الأفغانى ، الذى كان زعيما سياسيا ومصلحاً دينياً ، والذى لقى ربه بعد حياة كلها كفاح وجهـــد فى يوم ٩ مارس من سنة ١٨٩٧ .

ولو أننا سألنا عما ألفه السيد جمال الدين من كتب أو نشر من أبحاث أو ألقى من خطب ، ما وجدنا شيئاً ذا قيمة ، فكيف بالذى يجعل صاحبه مصلحا وزعيما !.

سنعرض فى حديثنا عن حياة الأفغانى إلى كتيبه الذى سماه «الرد على الدهريين»

وإلى بعض خطبه وما كتبه بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده فى مجلة « العروة الوثقى » التى أصدرها فى باريس : سنعرض لهذا ولما له فلا نجد فيه شيئا ذا قيمة يصح أن يقال بسببه : إن جمال الدين مصلح دينى أو زعيم سياسى .

ولكن جمال الدين لم يكن مصلحا وزعيما بكتبه أو محاضراته ومقالاته : بل كان زعيما مصلحا بسيرته وحياته ، وشخصه وخلقه ، وكفاحه وإخلاصه لفكرته : وسنجد فيما نترجم به للسيد من هذه الصفحات أنه لم يكن مصلحا دينيا وزعيما سياسيا فقط ، بل هو صاحب الفضل الأول والأكبر فى هذه النهضة الدينية والسياسية والاجتماعية فى هذا الشرق الحديث .

* * *

فى إقليم « كنر » من بلاد الأفغان ، وعلى بعد ثلاثة أيام بسير الابل من عاصمتها كابل ، ولد للسيد « صفتر » فى قرية « أسعد أباد » ولد سماه محمدا جمال الدين ، والسيد صفتر هذا هو أحد أفراد عشيرة قوية كبيرة الفروع كثيرة العدد ، تمتلك مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ، ويتصل نسبها بالإمام الترمذى ، ثم ترتقى بالنسب الى الإمام الحسين بن على ، رضى الله عنه .

وكانت ولادة هذا الطفل فى سنة ١٢٥٤ هـ [١٨٣٩] ميلادية ، وعند ما بلغ هذا الطفل الثامنة من عمره كانت الفتن والحروب الداخلية بين الأسرة المالكة فى الأفغان قد أطاحت بثروة هذه العشيرة القوية الكبيرة حيث جردها الأمير « دوست محمد » من أملاكها بعد أن تغلب على أخيه الذى كانت هذه العشيرة تعينه وتؤيده . ثم أمر « دوست محمد » بعد ذلك باخراج هذه العشيرة من إقليمها ، وأن تنقل إلى كابل وفيها السيد صفتر وابنه الصغير ، وبقى جمال الدين فى كابل يدرس العلوم الشرعية والعقلية والتاريخ ، ويدرس إلى جانبها قليلا من الطب والتشريح وشيئا من العلوم الرياضية ، فاستوعب قسطا كبيرا من هذه العلوم كلها فى عشر سنين ، ثم انتقل إلى الهند وأقام بها أكثر من سنة يشتغل ببعض علوم الرياضة على طريقة أوروبية ، وسافر بعد ذلك للحجاز ليحج ولكنه بقى يطوف فى بلاد الحجاز حتى دخل مكة بعد عام [١] .

---

[١] سنة ١٢٧٣ هـ .

ثم عاد جمال الدين بعد هذه الدراسة وهذه المعرفة إلى وطنه فتولى وظيفة فى حكومته ، وبهذه الوظيفة اتصل بدوست محمد الذى أجلى عشيرته عن وطنهم وجردهم من أملاكهم ، فأحبه هذا الأمير وأعجب به ، واستصحبه معه فى جيشه الذى سيره لفتح « هراة » ولكن هذا الأمير مات على أبواب المدينة ، ثم فتحت بعد موته .

ودارت الفتنة بعد وفاة « دوست محمد » واتسعت رقعتها ، وشبت نارها بين إخوة أربعة حتى استتب الأمر لمحمد أعظم ، وكان الشاب جمال الدين يعينه على إخوته . فرفع هذا الأمير منزلة جمال الدين وأكبر شأنه واعتمد عليه فى كل أمر حتى جعله كرئيس وزراء . وأخلص جمال الدين لأميره حتى كاد أن يدين بالطاعة له جميع من فى الأفغان : ولكن الحرب قامت مرة أخرى بين القبائل وبين الطامعين فى الملك ، حتى تغلب « شير على » على ابن أخيه محمد أعظم ، فهرب هذا ، ثم مات بعد أشهر فى نيسابور .

توجس جمال الدين بعد ذلك من شير على وخشى غدره ، وكان هذا الأمير الجديد يخشى أن يمس جمال الدين بسوء لمكانة عشيرته واحترام العامة له بسبب نسبه ، ولكن جمال الدين استصوب أن ينجو بنفسه من هذه الفتنة ، فاستأذن الأمير فى أن يحج ، فأذن له على شرط ألا يمر بإيران حيث كان الأمير المهزوم محمد أعظم لما يمت بعد فيها ، فارتحل جمال الدين الى الهند ، واستقبلته حكومتها بحفاوة فيها من الحذر والحيطة أكثر مما فيها من الاحترام والمحبة ، حتى إنها لم تسمح له بطول الاقامة فى الهند ، ومنعت العلماء من الاجتماع به إلا على أعين من رجالها . وبعد شهور أخرجته حكومة الهند من شواطئها ونقلته على مركب لها وعلى نفقتها الى السويس ، ومنها قدم الى القاهرة فأقام فيها أربعين يوما ، والتقى به فيها جمع من السوريين الذين يطلبون العلم ، وطلبوا أن يقرأ لهم شرح « الأظهار » فقرأ لهم بعضا منه فى بيته ، وفى هذه الأيام القليلة التى أقامها جمال الدين فى القاهرة تردد على الأزهر وعرف بعضا من طلاب العلم فيه .

ثم حوّل جمال الدين عزمه من السفر إلى [illegible]

أيام من وصوله إليها أمكنته ملاقاة عالى باشا الصدر الأعظم ، فأحبه وأكرمه وأقبل عليه ، ثم لقى بعد ذلك عددا كبيرا من رجال الدولة ، فأحبه بعضهم وخشيه بعضهم ، وأعجب به أكثرهم ، ولقى فيمن لقى بالآستانة رياض باشا وزير اسماعيل ورسوله إلى الباب العالى .

ونعتقد أن هذه الفترة من حياة جمال الدين التى قضاها فى عاصمة الدولة العثمانية كانت من الفترات الحاسمة فى تاريخ جمال الدين وتكوين شخصيته وبروز اسمه فى البلاد الإسلامية وخاصة تركيا ومصر ، فقد تناقل الناس الثناء عليه ، وذكروا علمه ودينه وأدبه ، حتى عين بعد ستة شهور من قدومه الآستانة عضوا فى مجلس المعارف .

ولكن هذا الصفو والاستقرار لم يدوما للسيد الأفغانى : فقد نصح له المخلصون من خاصته أن يفارق الآستانة بضعة شهور ثم يعود ، فخرج منها غاضبا محنقا ، ثم قصد إلى مصر مرة أخرى ليروح عن نفسه ، ولكن رياضا حبب إليه البقاء فى مصر واستمالة للإقامة فيها فمال . وأجرى عليه رياض رزقا فى كل شهر حتى يسهل له سبل العيش .

ويذكر مؤرخو السيد قصصا مختلفة عن سبب خروجه من الآستانة بعد ما نال فيها من الحظوة ، فيقال إنه بعد إقامته فيها اتصل بحزب « تركيا الفتاة » « جون تورك » الذى كان يعمل ضد الخلافة فغضب عليه لذلك . ويقال إنه التقى مرة برياض باشا فأسخطه السيد وأغلظ له القول فى مجلس حافل من وجوه الدولة . ولكنا قد رأينا أن رياضا هو الذى استمال السيد بعد خروجه للبقاء فى مصر لعرفانه فضله ؛ فنحن نستبعد هذه الرواية من إغلاظ الأفغانى لرياض .

ويروى الشيخ محمد عبده قصة طريفة طويلة عن خلاف قام فى الآستانة بين السيد وبين شيخ الاسلام حسن أفندى فهمى ، وقد شغل هذا الخلاف صحف الآستانة وأهلها ، وسلط شيخ الاسلام الوعاظ على أن يسفهوا الشيخ ويطعنوا عليه حتى طلب جمال الدين أن يحاكم شيخ الاسلام . ثم نصح له المخلصون من خاصته أن يفارق الآستانة فترة ، فنزح إلى مصر حيث استبقاه رياض للإقامة فيها ، فأقام .

نزل جمال الدين مصر فى شهر المحرم سنة ١٢٨٨ [١] ، وكان يعرفها من قبل قليلا ، ولكنه فى هذه المرة اندمج فى حياتها الأدبية والاجتماعية ، وتردد على دار ابراهيم بك المويلحى ، وكانت قائمة فى حارة الأمير حسين بشارع محمد على ، وهى فى ذلك الوقت ندوة المفكرين والعظماء والقادة ، فلما أجرى عليه رياض باشا رزقا شهريا عشرة جنيهات مقابل بقائه فى مصر ولو لم يؤد عملا ، استأجر منزلا فى حارة اليهود [٢] .

يقول الشيخ محمد عبده : إن طلاب العلم عرفوا الأفغانى عند ذلك و « اهتدوا اليه واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره ففاض درا ، وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية فى فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية طبيعية وعقلية ، وفى علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامى ، وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم » .

فى هذه المرة بقى جمال الدين فى القاهرة فترة أطول ، وهى الفترة التى كون فيها جماعته ، وأسس مدرسته الذهنية ، وثبت فيها دعوته الاصلاحية ، واتصل بتلميذه وصفيه الشيخ محمد عبده .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بقى الشيخ جمال الدين يدرس ويدعو دعوته الإصلاحية ، ويشارك فى كل أمر ذى خطر من حياة مصر فى ذلك العهد أكثر من ثمانى سنين ، أريد فيها أن يُنشأ للماسون محفل فى مصر ، فأيد السيد إنشاء هذا المحفل ، وحبذه وشارك فيه ، فتألبت عليه الخصوم ، وكان قنصل انجلترا واحداً من هؤلاء الخصوم ، وكذلك كان كثيرون يخشون دعوة جمال الدين وفكرته الاصلاحية ، ويرون فيه وفى دعوته خطراً ، فاتفق هؤلاء وهؤلاء وسعى قنصل انجلترا حتى نفى الشيخ من مصر هو وتابعه أبو تراب من غير محاكمة ، وأخرج من مصر فى سنة ١٢٩٦ هـ [٣] فقصد إلى الهند مرة أخرى .

---

[١] ٢٢ مارس سنة ١٨٧١

[٢] فى خان أبو طاقية .

[٣] آغسطس سنة ١٨٧٩

الصوفية المسلمون

لفضيلة الأستاذ نور الدين شريبه

خريج كلية اللغة العربية

هذا كتاب ألفه الدكتور رينولد . ا . نيكلسون ، وهو على صغر حجمه جم الفائدة للذين يتوخون دراسة الصوفية . والمؤلف غنى عن التعريف ، فهو حجة فى هذه الناحية من الدراسة الاسلامية ، قصر عليها حياته باحثا وناشرا ، وهو على ما له من مخالفة لوجهة النظر الاسلامية — سنلتزم الرد عليها — أقرب المستشرقين الى الإنصاف ، وأعمقهم فى هذه الناحية من الدراسات الاسلامية .

نور الدين

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مقدمة :

يبين عنوان هذا الكتاب بيانا كافيا ، السببَ الذى من أجله احتوته سلسلة تمثل الجهود والأخطار التى يلقاها أفراد الباحثين وجماعاتهم فى الكشف عن الحقيقة .

والصوفية Sufism — فلسفة الاسلام الدينية — قد وصفت فى أقدم تعريف موجود بأنها « إدراك الحقائق الربانية » . والصوفية المسلمون ولعون أن يسموا أنفسهم « أهل الحق [1] » .

وحين أعرض أصول مذاهبهم — على هذا الوجه من الرأى — سوف

(١) (الحق) لفظ كثيرا مايدور على ألسنة الصوفية يشيرون به الى [الله]

أعتمد الى حد ما على ما جمّعته خلال الأعوام العشرين السالفة من مصادر لتاريخ جامع للتصوف الاسلامى . وهو موضوع واسع الأطراف ، متعدد الجوانب ، يحتاج الى المجلدات الضخمة للكشف عن حقيقته فى إنصاف .

وليس فى طوقى هنا إلا أن أرسم هيكلا عاما لبعض القواعد والطرق ، والخصائص المميزة للحياة الروحية كما عاشها مسلمو كل طائفة ومرتبة ، منذ القرن الثامن الميلادى الى وقتنا الحاضر .

وإن الدروب التى سلكوها لشاقة ؛ وإن ما تؤدى اليه من الجاد لمظلم محير . قد عدمت فيه الصُّوى . ومع ذلك فان لم نأمل أن نصحب السَّفْر إلى غاية رحلتهم ، فان معرفة نجمعها عن وسطهم الدينى وتاريخهم الروحى ، لا بد أن تساعدنا على فهم الرياضات النفسية الغريبة التى كتبوا عنها .

ومن هنا أود قبل كل شىء أن أقدم ملاحظات قليلة على أصل الصوفية ، ونموها التاريخى . وصلتها بالاسلام ، وصفتها العامة .

وليست هذه الأمور نافعة لدارس علم (الأديان المقارن Comparative Religion) وحده ، بل إن شيئا من العلم بها لا غنى عنه ألبتة لدارس الصوفية نفسها دراسة جد . ولقد يقال إن الرياضات الصوفية جميعها تلتقى عند نقطة واحدة وذلك حق : بيد أن هذه النقطة عينها تتخذ وجوها واسعة الاختلاف تبعاً لديانة الصوفى ، وسلالته ، ومزاجه : كما أن الخطوط التى تجتمع حول هذه النقطة تتباين تبايناً عظيما ، لا حد لنوعه . والأنواع الكبرى من التصوف ، وإن كان بينها شىء من الشبه فى العموم ، كل منها يمتاز بخصائص خاصة ، نتجت من الظروف التى منها نشأ ، وفيها ترعرع : وكما أن النوع المسيحى لا يمكن أن يُفهم دون الإشارة إلى المسيحية . فكذلك النوع الاسلامى لا بد أن يبحث متصلا بالنمو الخارجى والداخلى للإسلام :

وكلمة (Noldeke) التى انحدرت من الديانة الأغريقية إلى الآداب الأوربية ، يقابلها فى العربية والفارسية والتركية — لغات الاسلام الثلاث الرئيسية — كلمة (صوفى) . واللفظان على كل حال ليسا مترادفين تماما ، لأن للفظة (الصوفى) مدلولا دينيا خاصا .

وقد قيدها الاستعمال بالصوفية الذين يدينون الدين الاسلامى . والكلمة العربية ، وإن اكتسبت على مدى الأيام مدلول الكلمة الإغريقية الرفيع : شفاه مقفلة بالأسرار القدسية ، وعيون مغمضة على النشوة الحالمة ، إلا أن مدلولها كان متواضعا يوم جرت على الألسنة لأول مرة حوالى سنة ٨٠٠ م (حوالى نهاية القرن الثانى الهجرى) .

واشتقاقها لا يزال حتى الآن موضع خلاف . فأكثر الصوفية يشتقونها — غير عابئين بقواعد التصريف — من اصل عربى هو (الصفاء) .

ومعنى هذا أن يكون الصوفى « هو الصافى القلب » أو هو « المصطفى » . وبعض الباحثين من الأوربيين يردها إلى الكلمة الإغريقية سوفوس ، ومعناها « ثيوصوفى » . ولكن « نولدكه Noldeke قطع - فى مقال نشر منذ عشرين عاما - أن الكلمة مشتقة من (الصوف) ، وأنها كانت فى الأصل موضوعة لزهاد المسلمين الذين تشبهوا بالرهبان المسيحيين فى ارتدائهم غليظ الصوف ، دليل ندمهم على ما أسلفوا ، وعلى اطراحهم متاع الحياة الدنيا .

والصوفية الأولون كانوا فى الواقع زهادا وادعين أكثر منهم متصوفة . فإدراكهم المستولى عليهم للخطيئة ، تصحبه الرهبة من يوم القيامة وعذاب النار : تلك الرهبة التى ليس فى طوقنا أن نتحققها ، والتى صورت فى القرآن تصويراً حيا ، دفعتهم الى أن يجدوا فى الهرب من الدنيا خلاصا لهم . وينذرهم القرآن من جهة أخرى أن الخلاص يتوقف أساسا على مشيئة الله الخفية التى تهدى المهتدى سواء السبيل ، وتضل الضالين عن القصـــد القويم ، وأن حظهم قد رقم فى الألواح الخالدة - ألواح عناية الله - لا يستطيع شىء لها تبديلا . فيجب أن يعلم أنه إذا قدر لهم أن ينجيهم صومهم ، وصلاتهم ، وما يأتون من أعمال الخير ، فهم لابد ناجون . واعتماد كهذا لابد أن ينتهى الى التأمل فى الله ، والخضوع المطلق للمشيئة الربانية . وتلك ميزة من ميزات التصوف فى أقدم صوره .

وقد كان المعين الأصيل للحياة الدينية الإسلامية خلال القرن الثامن الميلادى - الثانى الهجرى - هو الخوف : الخوف من الله ، والخوف من جهنم ، والخوف من الموت ، والخوف من الخطيئة . على أن الدافع المناقض له كان

قد بدأ يظهر تأثيره ؛ وجعل من ولية الله رابعة ـ على الأقل ـ مثلا ملحوظا لإنكار الذات الصوفى الحق .

ومن هنا لم يكن ثمة فرق كبير بين الصوفية وبين المتشددين من المسلمين السنيين . إلا أن الصوفية يجعلون لبعض مذاهب القرآن أهمية خاصة ، وينمونها على حساب غيرها من المذاهب التي يعتبرها كثير من المسلمين متساوية الأهمية .

ولا بد كذلك من القول بأن حركة الزهد استلهمت المثل العليا المسيحية ، وكانت شديدة التعارض مع روح الاسلام المرحة النشيطة . والنبي فى حديث مشهور قد رفض تقشفات الرهبانية ، وأمر قومه أن يحبسوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله ، وجعل من نفسه — كما هو معروف — أصدق الأمثلة على تحبيذ الزواج . وتحريمه للبتولة وإن لم يخل من تأثير فإن فتح خلفائه لفارس وسوريا ومصر قد وصل المسلمين بأفكار عدلت نظرتهم إلى الحياة وإلى الدين تعديلا عميقا .

والقارئون للقرآن من الأوربيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وعدم تماسكه فى معالجة كبار المعضلات ؛ وهو نفسه لم يكن عالما بهذه المعارضات ولم تكن حجر عثرة فى سبيل صحابته الذين تقبل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله . ولكن الصدع من هنا كان . وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار . من هنا قامت (المرجئة) الذين يضعون الإيمان فوق الأعمال ويؤكدون الحب فى الله وحسن السيرة . و (القدرية) الذين يؤكدون أن الانسان مسئول عن أعماله . و (الجبرية) الذين ينكرون ذلك . والمعتزلة الذين أنشأوا علم الكلام مؤسسا على قواعد العقل وأنكروا صفات الله لأنها لا تتفق ووحدانيته ، والقضاء الأزلى لأنه لا يتفق وعدله . ثم (الأشاعرة) أخيرا متكلمو الإسلام الجدليون الذين صاغوا النظام الدينى والغيبى (الميتافيزيق) الذى يقوم عليه مذهب أهل السنة إلى الوقت الحاضر .

تعليق :

يقيم الأستاذ نيكلسون دعواه الخاطئة عن القرآن ، والرسول ، وصحابته ، على شعب أربع ؛ فهو يقرر :

أولا : أن مؤلف القرآن مضطرب غير متماسك فى معالجة كبار المعضلات .

ثانيا : أنه نفسه لم يكن عالما بوجود هذا الاضطراب والتعارض .

ثالثا : أن إيمان صحابة الرسول الساذج قد دفعهم الى الإيمان بأن القرآن كلام الله .

رابعا : أن الفرق الاسلامية : من أمثال المرجئة ، والقدرية ، والمعتزلة ، والأشعرية ؛ إنما قامت بسبب هذا التعارض الذى يحتويه القرآن .

والباحث المنصف ، بقليل من التأمل ، لا يسعه إلا أن يرى الشطط الفكرى والخطأ التاريخى الذى وقع فيه الأستاذ (نيكلسون) .

فمؤلف القرآن عنده هو محمد صلوات الله عليه : وليس القرآن كتابا أنزل من عند الله على رسوله . وهذه دعوى سبقه إليها كفار قريش انفسهم ، واجهوا بها رسول الله حين دعاهم إلى كتاب الله فقالوا عنه : إنه « إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » بل ذهبوا الى أنه يستمليها رجلا غيره ، فكذبهم الله بقوله : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

وتحداهم رسول الله أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ؛ وبالغ فى تحديهم فطالبهم أن يأتوا بسورة فعجزوا ، وقام هذا التحدى ، بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى الرفيق الأعلى ، مدى هذه القرون الطوال . وابتلى الاسلام بفرق الزنادقة ، وطوائف الملاحدة ؛ وقد حاولوا الكيد له بكل وسيلة . ولكنهم جبنوا أمام هذا التحدى القائم فى وجوههم من الكتاب العزيز .

وعجيب أمر السادة المستشرقين ؛ فمن يقرأ ما كتبوه عن محمد صلوات الله عليه — حتى المنصفون منهم — ينتهى إلى رأى عجب فيه : هو أن محمدا من أوساط الناس ، لا يتميز — عندهم — بشىء من العبقرية الفذة ، ولا الفكر المستنير ! ! فكيف استطاع هذا الرجل العادى أن يؤلف هذا الكتاب الذى دانت له الملايين من البشر ، والذى انطوى على نظام شامل لحياتهم ، يجمع أصولها التى لا ينبغى أن يختلفوا عليها ، ويدع فروعها لعقولهم ، واجتهادهم ، وسنة نبيهم ؟ كلا الدعويين يناقض الآخر .

وثمة شيء آخر يثبت أن القرآن من عند الله . لقد ورثنا رسول الله كتاب ربه ، وسنته هو . ومن يقرأ الكتاب الكريم والسنة النبوية يرى الفرق واضحا بينهما فى كل شيء : فى أسلوب التعبير ، وفى الموضوعات التى تعالجها ، والأسلوب الذى تعالجها به . فلو كان الكتاب من عند محمد صلى الله عليه وسلم لكان الكتاب والسنة صنوين — فى التعبير على الأقل — وهو ما لا يقول به من له دراية ببسائط اللغة العربية .

القرآن كتاب الله . ما هو بقول بشر ، ولا سحر ساحر ، وإن تعامى عن هذه الحقيقة الواضحة المتعامون .

وليس فى القرآن تناقض ولا تضارب ، بل « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » . وإذا كان السادة المستشرقون لم يتيسر لهم فهم هذه المتشابهات ، وعدوها متضاربات ، فليس ذلك ذنب القرآن ، ولكنه ذنب معرفتهم القاصرة باللغة العربية خاصة والتفكير الإسلامى عامة . وأنت مهما جهدت أن تتذوق لغة غير لغتك كما يتذوقها أبناؤها فان تستطيع . وقد يقرأ القارىء العربى آية من الكتاب العزيز فتأخذه روعتها ، أو بيت شعر فيهتز طربا : ولكنه لا يجد هذه اللذة حين يقرأ لشيكسبير أو ملتون . وأهل كل لغة أعرف بخفاياها .

والقرآن ليس كتابا ألف فى موضوع بذاته ، حتى يلتزم فيه ما يلتزم فى الكتب الموضوعة على هذا النحو من المقدمات والتمهيدات ، ثم النتائج والخواتيم . ولكنه كتاب شامل لحياة المسلمين ، وضع لهم كافة : يجد فيه الفيلسوف مادة فلسفته ، والصوفى روحانيته ، والمشرع أصول قوانينه ، والأخلاقى قواعد سلوكه ، واللغوى فرائد بيانه . ومن هنا تنوع ما فيه من قصص وحكمة ، وتشريع ، وتاريخ ، وكان على هذا كله متناسقا لا اختلاف فيه « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

والذين لهم بصر بالدراسات الاسلامية يعلمون أن الجماعة الاسلامية قد ابتليت بعد وفاة الرسول بالاختلاف على من يلى الحكم إلى أن سكن هذا الاختلاف ظاهراً بولاية أبى بكر رضى الله عنه أمر المسلمين ؛ وأن السفينة الاسلامية قد

ارتطمت بصخرة مقتل عثمان ، وقيام المطالبين بدمه فى وجه على ؛ وتشعبت الحياة الاسلامية واتسعت بعوامل الفتح والاختلاط والوراثات الفكرية المختلفة التى انصبت فى المحيط العربى الإسلامى ، فقامت هذه الفرق المختلفة .

وليس هذا موضع استقصاء أسباب قيامها . ولكن الذى لا ريب فيه أن القرآن لم يكن سبباً مباشراً لقيام هذه الفرق .

ولقد وددت لو أن الذين يعالجون الموضوعات الاسلامية من المستشرقين ينزعون عنهم لباس التعصب ، ويلتزمون الأنصاف فى أحكامهم ، ولا يندفعون وراء عواطفهم ، إنما يبتغون الحق لذات الحق . ولكن هذه منزلة لا يصل اليها إلا القلة المختارة من المفكرين ؟

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المحاباة

قيل لمعاوية : إن آذنك يقدم معارفه فى الإذن على وجوه الناس ، قال معاوية : وما عليه ؟ إن المعرفة لتنفع فى الكلب العقور ، والجمل الصؤول ، فكيف فى رجل حبيب ذى كرم ودين ؟ .

نقول : لعل هذا الرد مكذوب على معاوية ، فإن مثله لايصح أن يجهل أن النظام والعدالة يجب أن يتغلبا على المعرفة . وليس بمنكور أن المعرفة تنفع ولكن لا فى إخلال بنظام ، ولا فى إضاعة لحق : ولو صح ما نسب الى معاوية لكان للموكلين بالنظم الاجتماعية ، وبالعدالة فى الأحكام أن يميلوا مع المعرفة حيث مالت .

وقد كنا نود أن كتب المحاضرات تعنى بالتنبيه الى مثل هذه الشؤون فيتنبه القراء الى ما يتخلل مطالعاتهم من وجوه للنقد فتتربى لديهم ملكة الأدب الصحيح .

الشعر فى العهد الايوبى

لفضيلة الأستاذ الشيخ رياض هلال
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

تحدثت فى عدد سابق [١] عن لون من ألوان تشجيع الأيوبيين للأدب عامة وبخاصة الشعر، وهو الإثابة عليه بالعطاء الجزل والنوال الغمر، مما ألهب قرائح الشعراء وأذكى شاعريتهم : واليوم نتحدث عن عامل آخر من عوامل الأخذ بناصر الشعر وشد أزره فى عهد الأيوبيين، وهو مشاركة الأيوبيين لأربابه ومحترفيه، فى مدارسته والعكوف عليه، واقتنائه :

رووا أن عضد الدين ابن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، كتب شعر أبيه وجمعه لصلاح الدين، وهو لشغفه به يفضله على جميع الدواوين، حتى إذا كان مؤيد الدولة بدمشق، جالس صلاح الدين وآنسه، وذاكره فى الأدب ودارسه[٢]، وكان صلاح الدين إذا بلغه عن شيخ رواية عالية وكان ممن يحضر مجلسه، أحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه، وإن لم يكن ممن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى اليه. ويروون أنه كان حافظاً لأنساب العرب عارفا بسيرهم؛ كما عرف عن الكامل الأيوبى حبه للعلماء ومجالستهم ومناقشتهم فى مسائل غريبة فى الفقه والآداب والعلوم، يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا فى خدمته [٣]؛ وهو الذى أنشأ دار الحديث بالقاهرة التى قال فيها المقريزى : إنها ثانى مدرسة للحديث على وجه الأرض. وقد تذاكر الأدباء فى أحد مجالسه أصعب القوافى فى الشعر؛ فقال : من أصعبها الياء الساكنة فمن كان منكم يحفظ شيئا منها فليذكره؛ فتذاكروا فى ذلك فلم يتجاوز أحد منهم عشرة أبيات.

---

(١) صفر ١٣٦٧.

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٦٤.

(٣) أبو الفداء ج ٣ ص ١٦١.

فقال السلطان : أنا أحفظ منها خمسين بيتاً قصيدة واحدة ، وذكرها ، فاستحسنوا منه ذلك . فقال القاضى شرف الدين كاتب سره : أنا أحفظ منها مائة وخمسين بيتاً قصيدة واحدة ؛ فقال السلطان : ياشرف الدين : جمعت فى خزائنى أكثر دواوين الشعراء فى الجاهلية والاسلام ، وأنا أحب هـذه القافية فلم أجـد منها أكثر من الذى ذكرته لـكم ، فأنشدنى هـذه الأبيات : فأنشده قصيدة ابن الفارض الياثية التى مطلعها :

حادى الأظعان يطوى البيد طى منعما عرج على كثبـان طى[1]

ويروى صـاحب مرآة الزمان[2] عن المعظم عيسى الأيوبى أنه قرأ الأدب والنحو على تاج الدين الـكندى ، فأخذ عنه كتاب سيبويه وشرحه الـكبير للسيرافى والحماسة ، وكان يحفظ الإيضاح لأبى على الفارسى ، حتى قال صاحب النجوم الزاهرة فى حقه : إنه رجل بنى أيوب وعالمهم غير مدافع . ولا شك أن تلك غاية مايجهد له العالم المتخصص لا الملوك المشغولون ، إلا إذا أسرهم العلم واستبدبهم . ولعل من أبين الدلائل على العنـاية بالشعر أن يجتمع الإخوة الثلاثة : الـكامل الأيوبى صاحب مصر ، والأشرف صاحب الجزيرة ، والمعظم صاحب دمشق ، بقصر الـكامل فى المنصورة بعد طرد الفرنجة من دمياط ، ثم يبعثوا إلى جواريهم فيحضرن فى جمع من أهليهم وخواصهم ، فيأمر الأشرف جاريته أن تغنى ، فغنت :

ولمـا طغى فرعون عكا وقومه وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا فأغرقهم فى اليم بعضاً على بعض

فطرب موسى وقال : يا لله ! كررى ! . ولـكن أخاه الـكامل شق عليه ذلك فأسكتها وقال لجاريته : غنى أنت ، فغنت :

أيا هـل دين الـكفر قوموا لتنظروا لمـا قد جرى فى وقتنـا وتجددا
أعياد عيسى إن عيسى وحزبه وموسى جميعـاً ينصران محمـدا

---

(١) شرح ديوان ابن الفارض لرشيد بن غالب جـ١ ص ٩

(٢) مخطوط فى التاريخ الاسلامى

فأعجب ذلك الكامل وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار ، فمضت تلك الليلة من أروع ليالى الشعر والغناء عند الأيوبيين .

وأما إحساس الأيوبيين بمحاسن الشعر واهتزازهم له ومبلغ تأثرهم به ، فأمر تفيض به كتب السير والتاريخ ، وتشرق به أخبار ملوكهم وأمرائهم : فقد عرف عن صلاح الدين أنه كان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها فى مجالسه : فكثيراً ما كان ينشد قول أبى منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق الحميرى :

وزارنى طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحا ... وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى ... نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وكان يعجبه قول تشو الملك أبى الحسن على بن مفرج المعروف بابن المنجم المصرى الدار والوفاة ، وهو فى خضاب الشيب :

وما خضب الناس البياض لقبحه ... وأقبح منه حين يظهر ، ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت ... على الرسم من حزن عليه منازله

قالوا : فكان إذا قال مات الشباب ، يمسك كريمته وينظر إليها ويقول : إى والله مات الشباب [1] ! وكتب مرة الى بعض أصحابه بدمشق :

أيها الغائبون عنى وإن كنـ ... ـتم لنابى بذكركم جيرانا
إننى مذ فقدتكم لأراكم ... بعيون الضمير عندى عيانا

كما كان يتمثل بالأبيات فى المناسبات وينشدها فى المقامات إذا اشتد به أمر أو حل بساحته خطب . كتب مرة الى أخيه تورانشاه كتابا يذكر له فيه واقعة فى أوله :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا ... وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويروى ابن الأثير أنه رأى هذا الكتاب بخط يد صلاح الدين [2] ولما مات تورانشاه هذا حزن عليه حزنا شديدا ، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثى

---

(١) النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٥٦ . (٢) مختصر أبى الفدا حـ ٣ ص ٥٦ .

وكان كتاب الحماسة من حفظه [١] وقيل له إن الوحم كثر فى مرج عكا من كثرة القتل فتمثل :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

وكان مرة خارجا الى الشام فخرج الناس لوداعه ، فسمع قائلا يقول فى ظاهر المخيم :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتطير من ذلك وانقبض بعد انبساط . وقد كان خلفاء صلاح الدين بهذه المثابة يطربون للشعر ويفزعون اليه عند المناسبات ، مما يبين عن مبلغ كلفهم به واحتفالهم له ؛ فعرف عن الكامل أنه كان يعجبه البيتان :

ما كنت قبل ملك قلبي تصد عن مدنف حزين
وإنما قد طمعت لما حللت فى موضع حصين [٢]

وكان ينشد كثيرا فى مرضه :

يا خليلىّ خبرانى بصدق كيف طعم الكرى فأنى نسيته

كما عرف عن تورانشاه أنه أرسل إلى صلاح الدين كتابا فيه أبيات من شعر شاعره ابن المنجم ، منها :

فهل لأخى بل مالكى علم أننى إليه وإن طال التردد راجع
وأنى بيوم واحد من لقائه لملكى على عظم المزية بائع
ولم يبق إلا دون عشرين ليلة وتجنى المنى أبصارنا والمسامع
لدى ملك تعنو الملوك إذا بدا وتخشع إعظاما له وهو خاشع
كتبت وأشواقى إليك ببعضها تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك إلا راحة أنت زندها تضم على الدنيا ونحن الأصابع [٣]

أما بعد ، فإلى عدد آخر نرجىء الحديث عن الشعراء من البيت الأيوبى ، وسنرى منهم شعراء لهم فى صناعة الشعر باع طويل ؟

---

(١) الروضتين ـ ٢ ص ١٨ (٢) النجوم الزاهرة ـ ٦ ـ ٢٣٢
(٣ الروضتين ـ ٢ ـ ١٨ ، ١٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

فى الاحتفال بذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول ، وتوزيع الجوائز على أوائل الناجحين فى حفل حافل شرفه معالى رئيس الديوان الملكى

الحمد لله الذى وفق المصلحين ، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لنهجه القويم ، وصراطه المستقيم .

أما بعد : فإن للعاملين لذكرى ، وإن للمصلحين لأثراً ، وإن أولى العاملين بالذكر ، رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وأقاموا ركن الدين ، ونهضوا بواجباتهم على أكرم وجه ، وأمثل سبيل . وأى رجل أخلق بالذكر وأحق بالتمجيد من عاهل مصر العظيم ، المغفور له ، الملك فؤاد الأول . فقد كان ـ طيب الله ثراه ـ مثلا يحتذى فى إعزاز الدين ، وإكرام رجاله ، والنهوض بهم إلى المكانة اللائقة بدينهم الحنيف ، وتعاليمه السامية .

ولو أردت أن أعدد مآثر فؤاد العظيم ، وأياديه الغر الميامين ، على الأزهر ورجاله ، لما وسعتنى صحائف وصحائف . وهذا التاريخ من قبلى ، قد سجل اسم فؤاد فى عداد الخالدين ، وامتلأت صحائفه بآثاره الخالدات ، التى نهضت بمصر كلها نهضة عظيمة ، فى جميع مناحى حياتها ونشاطها الاجتماعى ، والثقافى ، والسياسى ؛ فما من مؤسسة ولا جماعة هدفها الخدمة العامة والإصلاح ، إلا يتوج اسمُ فؤاد جهودها ، بما بذل لها من عون أدبى ومادى .

لم يكن ـ طيب الله ثراه ـ يسمح أن تمر لحظة من حياته العامرة بوجوه النفع والإصلاح ، دون أن يسجل فى ثبت النهضة أثرا جديدا من آثاره الدافعة بالأمة الى أوج الرقى والحضارة .

واليوم ونحن نحيي الذكرى الثانية عشرة لهذا المصلح العظيم ، لا نستطيع أن نمر على آثاره فى النهضة العلمية دون أن نقف لحظات نستمطر فيها الرحمة على هذا العاهل العظيم .

أما الأزهر فى عنقه لفؤاد العظيم ، دَين لن يستطيع أبناء الأزهر مهما جهدوا فى ذكره ، أن يوفوا حق الملك العظيم ، الذى بذل لهم من نفسه وماله وسلطانه ، ما أقام لهم عهد معهدهم العتيد على أساس مكين من الإصلاح الدينى والعلمى ، حتى حق أن يلقب فؤاد على الزمن « منشىء الأزهر الحديث » .

فاللهم أسكنه المقام المحمود الذى وعدت من يعملون فى سبيلك ، ويؤدون الحق ، ويؤازرون الخير ، ويبرون العلم والعلماء ، قدر ماجهد فؤاد نفسه فى خدمة العلم والدين ، وجزاء وفاقا لما بذل فى سبيل الله وأعان على مرضاته .

اللهم أجزل له مثوبتك بما أجزل للمسلمين من عطاء ، وبما أمد الأزهر من فيض الرعاية .

« لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات ، وأولئك هم المفلحون . أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم » .

أبنائى الأزهريين :

إن إحياء ذكرى عاهل مصر العظيم فؤاد الأول واجب على الأزهريين ، عرفانا بما أسدى لهم من جميل رفع من قدرهم ، وأعلى من ذكرهم . وإن من آثاره التى لا يحصيها العد هذه اليد التى أسداها للطلاب تشجيعا على طلب العلم ، وحثا لهم على التنافس فيه ؛ فقد وهب ـ أسكنه الله فسيح جناته وأثابه خير المثوبة ـ جائزة مالية عظيمة لأوائل الناجحين من خريجى الكليات الأزهرية الثلاث ، التى هى من غرس يده ، تقديرا لهم ، وحفزا لغيرهم .

وإنا نتهز فرصة ذكراه فنقدم هذه الجوائز للأول والثانى من ناجحى الشهادات العالية فى الكليات الثلاث ، مكررين الدعاء من قلوبنا أن يجعل جلالته

فى جنات الخلد مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

« والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوهَهم قَتَرٌ ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »

ولعل أجل ما نعتز به فى هـــذه الذكرى العزيزة علينا وعلى الوطن ، هو ماتفضل به علينا حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم الملك فاروق الأول ، شبل فؤاد العظيم ، بمناسبة إحيائنا هذه الذكرى ؛ فقد تفضل حفظه الله فأسبغ على الأزهر ورجاله نعما لا حد لها ، ورعى طلابه بعناية سامية يعلن بها رضاءه السامى وتقديره للعاملين المجدين . ولاغرو فالفاروق ابن فؤاد العظيم .

وكل يوم تطلع مع شمسه مأثرة ومحمدة للفاروق ، هدفها عزة الدين ، وغايتها نصرة الإسلام والمسلمين .

والآن أضرع إلى الله العلى القدير باسمى واسمكم أن يجزيه عنا خير الجزاء ، وأن يحييه حياة طيبة مباركة تعم بنفعها العباد والبلاد . إنه سميع مجيب ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

الاسلام والاشتراكية

وسمو نظام الاجتماع الاسلامى على جميع النظم العالمية

تلطف سعادة الوزير المفوض لدولة المجر فزار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر ، فى أوائل شهر مايو الجارى ، رافعا لفضيلته تحيات مسلمى هنغاريا . فقابل فضيلته هذه التحيات بمثلها ، ورجا سعادة الوزير المجرى أن يبلغها اليهم مشفوعة بدعائه وجميل ثنائه .

ثم جرى فى هذه المقابلة كلام عن حال المسلمين فى المجر ، فأجاب الوزير بأنهم ينعمون بالحرية الدينية والاجتماعية ، وبأنهم يتمتعون بعناية حكومتهم ، وبأنها أصدرت حديثا قوانين اعترفت فيها بمساواة الدين الاسلامى لسائر الأديان المعترف بها فى بلاد المجر .

فأبدى له فضيلة الأستاذ الأكبر سروره بهذه الأنباء ، ورجا سعادة الوزير المفوض أن يبلغ أولئك المسلمين أن يبقوا متمسكين بدينهم ومخلصين لوطنهم .

ثم انتهز الوزير هـــذه الفرصة فسأل فضيلة الأستاذ الأكبر عن مبلغ صحة ما يكتب عن الاشتراكية فى الاسلام .

فتفضل فضيلة الأستاذ الأكبر بإجابته بما يأتى :

« أود أن أوضح لسعادة الوزير كلمة الدين دون تأثر بأى مذهب أو رأى ، إلا الرأى العلمى الخالص . وكلمة الدين هى أن الاسلام نظام قائم بذاته لا علاقة له بالاشتراكية ولا بغيرها من المذاهب . وهو نظام يكفل للمسلمين السعادة فى معاشهم ومعادهم ، ويضمن لهم التكافل الاجتماعى بفرض الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء . على أنه مع ذلك يعترف صراحة بالملكية الفردية ونظام المواريث ، والتفاضل فى الكسب والرزق . وهذا النظام يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة .

ونحن نقول تعليقا على هذا التصريح القيم : إنه أقوم وأعدل ما يكتب عن النظام الاجتماعى والمالى فى الاسلام .

فإن قول فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الاسلام نظام قائم بذاته لا علاقة له بالاشتراكية ولا بغيرها من المذاهب ، حق لا مرية فيه . فإن الاشتراكية لم توجد إلا فى القرن التاسع عشر ، فأين هى من الاسلام الذى أنزل فى القرن السابع للميلاد ؟ نعم وضع مشرّع اسبارطا اليونانية (ليكورج) نظاما اقتصاديا لجمهوريته لم تقم عليه أمة قبله ولا بعده ، آخى به بين جميع الاسبارطيين ، حتى كانوا يتناولون الطعام مختلطين فى موائد عامة كأنهم أعضاء أسرة واحدة ، وكانت أموالهم مشاعة بينهم لا غنى فيهم ولا فقير ؛ ولكن هذا النظام لم يلبث أن تصدع ، وزالت معه دولة اسبارطة ، ووقعت تحت كلاكل المقدونيين ، دون أن يترك أهلها أثرا عليا أو فنيا كما ترك إخوانهم الآتيون . وقد كانت بلادهم جبلية قاحلة لا تسمح أن تقوم بها أمة تتخذ نظاما يصلح أن يسمى نظاما اجتماعيا قيما ، لذلك لم يفكر حتى غلاة الاشتراكيين فى أن يتخذوا ما كانت عليه قدمة تؤيد ما يذهبون إليه من نظرياتهم .

أما قول فضيلته عن الإسلام : إنه نظام يكفل للمسلمين السعادة فى معاشهم ومعادهم ، ويضمن لهم التكافل الاجتماعى ، بفرض الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء ، فثابت لا يمكن التردد فيه . فقد أثبت التاريخ أن الضعفاء والفقراء فى المجتمعات الإسلامية نالت فى جميع بلاد المسلمين من الرعاية ما لم ينل بعضه أمثالهم فى جميع البلاد ، ومنها أوروبا ، إلى أوائل القرن التاسع عشر .

فقد كانت الطبقة الدنيا من الشعوب تعيش فى الحرمان ، بل فى العبودية للسراة والمثرين . وكان الفلاحون يباعون ، حتى فى فرنسا نفسها وفى أرقى ممالك أوروبا ، مع الأرض التى يعملون فيها ، فينتقلون من ملكية سيد إلى ملكية سيد آخر دون أن يستشيرهم أحد فى مصيرهم .

قال فضيلة الأستاذ الأكبر : **فرض الإسلام الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء . وتقول نحن**

الاسلام من أول عهد الرومان إلى عهد الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر كانت تفرض الضرائب والاتاوات على الفقراء ومتوسطى الحال ، وكانت تعفى الأغنياء والأقوياء منها . وقد حملت هذه المعاملة العامة فى الدولة الرومانية على الاضراب عن العمل مرات متتالية ، فكانوا فى كل مرة يرضخ لهم القادرون والموسرون بصبابة لاتروى غلة ، فلما أعوزهم الاصطبار تركوا أعمالهم ولاذوا بالجبال ؛ وما زال أمرهم بين بين حتى زالت الدولة الرومانية ، وخلفتها حكومات استعانت على خنق شكاوى العامة بالدين ، بعد أن حرفوه عن حقيقته .

كان الملوك والأمراء ورجال الدين ، ومن لهم صلة بهؤلاء فى أوروبا ، معفين من كل التكاليف المالية على مزارعهم الواسعة ، وعقاراتهم الثابتة ، وتجاراتهم الرائجة ؛ وكان على العامة أن يرسفوا فى قيود الفاقة ، وأن يصبروا على آلام الحرمان . فلما جاء الاسلام قلب هذه الحال الى ضدها ، ففرض على القادرين والموسرين زكاة لمصلحة الفقراء والضعفاء والمعوزين ، ودعاها حقا لهم ، فقال تعالى : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

وقد شدد الاسلام فى تحصيل هذا الحق حتى قاتل الممتنعين عن أدائه . فانه لما امتنع بعض القبائل العربية عن دفع الزكاة ، أمر أمير المؤمنين أبو بكر أن تحصل منهم بالقوة ؛ فلما أكبر بعض أصحابه هذا التشديد قال : « والله لو منعونى عقال بعير لقاتلتهم عليه » . وأنت خبير بأن هذه الزكاة كان يؤدى جانب كبير منها للفقراء والمملقين . قال الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم » ، وكلها كما ترى وقف على مصالح الفقراء وحفظ كيان الاجتماع . فقوله تعالى : « والعاملين عليها » أى على تحصيلها فإنهم يعطون أجورهم منها . وقوله سبحانه : « والمؤلفة قلوبهم » أى الذين أسلموا حديثا فتستألف قلوبهم بإمدادهم بشىء يستصلحون به معايشهم ليتحققوا أنهم بين ظهرانى قوم رحيمين . وقوله جل وعز : « وفى الرقاب » أى فى فك أسر الأرقاء ، فقد كان من عادة العرب أن يعين الواحد منهم لرقيقه مالا إذا أداه له تحرر من أسره . فأمر الله الحكومة الإسلامية أن تمد هؤلاء الأسرى بأموال ليتحرروا من رقهم .

غرض عمرانى جليل يشعر بأن الإسلام يرمى الى إعانة الضعفاء على أية صورة كان ضعفهم . وقوله تعالى : « والغارمين » أى والمديونين لأنفسهم فى غير معصية ولا إسراف . وكذلك الباذلى أموالهم لإصلاح ذات البين ، فيرد إليهم ما دفعوه وإن كانوا أغنياء ، تنشيطا لهم على العمل للإصلاح بين الناس . « وابن السبيل » : المسافر الذى فقد ماله .

وقول فضيلة الأستاذ الأكبر لمحدثه : « وهذا النظام يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة » ، فتأكيد لا مبالغة فيه ، فإن العقول الإنسانية عجزت عن فرض نظام اقتصادى يسرى سريان نظام الزكاة ، ويتناول الثروة العامة من جميع نواحيها ، على الوجه الذى عليه الزكاة فى الإسلام . فإن كل ما فعلته هذه العقول وتفعله أن تفرض على دَخْل كل إنسان وعلى ما يؤول إليه من الأموال ، ضريبة تصاعدية تحصلها وتضيفها الى خزينة الدولة ، فتنفقها فى الوجوه التى تنفق فيها سائر إيراداتها .

ولكن الإسلام خص دَخْل الزكاة، مهما كثر ، فى رأب صدوع المجتمع التى أساسها الفقر والإعواز . وقد ثبت أن الفقر فى الطبقات السفلى من المجتمعات شر أدواء الاجتماع ، فهو يحمل الواقعين تحت كلاكله على إتيان جميع ضروب الشرور للحصول على أخص حاجات الحياة وهو القوت . فالبطون إذا خوت ، والأجساد إذا عريت ، دفعت أصحابها لاستساغة جميع صنوف الجرائم ، وعدّت ذلك عملا مشروعا . ومهما أعدت الحكومات من درجات العقوبات باءت فى كبحها بالفشل .

وفى البيئات التى يشيع فيها الفقر ، تروج جميع المذاهب المتطرفة التى تستحل جميع شكول الأعمال الوحشية للوصول إلى أغراضها ، وتعتبر ذلك من الأمور المشروعة . وقد ذاقت أوروبا من هذه الناحية شر ما يولده الفقر من الأعمال الضارة بالعمران ، من أول الاضرابات البريئة عن الأعمال ، إلى آخر ما تتطور إليه من الثورات التى لا تبقى ولا تذر . وقد استعاذ النبى صلى الله عليه وسلم من الفقر ، وهو أزهد الناس فى الدنيا ، ولم يملأ بطنه قط من طعام .

فمن أحكم ما رأيناه فى الإسلام ، وكل ما فيه متناه فى الإحكام ، أن يفرض على أهله فريضة مالية يخصصها لتدارك حاجات الفقراء . وقد عُنى عناية فائقة

بأمر هذه الطبقة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » . ناهيك أنه سمى ما يدفع لإعانة الفقراء حقا لهم ، لا مجرد تفضل من الأغنياء عليهم . وقد أمر بامـداد طالب المعونة بحاجتـه مهما كان مظهره فقال : « أعط السائل ولو جاءك على فرس » .

بهذه التعاليم اضطلعت الأمة الاسلامية ، فلم ينتشر فيها الفقر انتشاره فى غيرها ، ولم يصبها من أهل الإملاق شر فى جميع أدوار حياتها الاجتماعية ، واستن المسلمون بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم فى علاج الفقر بقدر ما هُدوا اليه ، فأسسوا للفقراء الملاجىء ، وشيدوا لأبنائهم المدارس المجانية ، ووقفوا عليها عقائل أموالهم ، ولا يزالون يجرون على هذه السنة .

ولم يكتف الاسلام بما فرض من الزكاة ، بل جعل كثيرا من الكفارات أموالا تبذل للفقراء ، أو لفك رقاب الأسراء ، وكلها ترمى الى الترفيه عن المحتاجين ، وقد عُدت الآيات التى وردت فى الكتاب الكريم عن بذل المال فى وجوه البر ، فوجدت أكثر مما ورد منها فى الحث على الصلاة .

إن الذين يطلعون على الحوادث العالمية ، وخاصة الحادثة من تطاحن الاحزاب وما يجره هذا التطاحن من اضطراب الأمور ، وقلق النفوس ، يدركون لأول وهلة أن منشأها سوء توزيع الثروة بين الأفراد ، فإذا وجد نظام اقتصادى يحوّل حصة صالحة من الثروة العامة تحويلا آليا مبنيا على نظام قار ثابت ، الى الناحية التى تشكو الإقلال ، سـواء بتوزيعها نقدا ، أو بإنشاء ملاجىء ومستشفيات وصيدلات ومدارس مجانية ، بحيث تسد حاجة أهل الإقلال ، فان المذاهب الاشتراكية من معتدلها ومتطرفها لا تجد حاجة لتكدير صفو الحياة الاجتماعية . وهذا يتم عمله بواسطة الزكاة .

فما أصدق فضيلة الأستاذ الأكبر إذ قال لوزير المجر : « إن هـذا النظـام الاسلامى يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مـذهب دنيوى من المذاهب الحديثة » .

محمد فريد وجدى

الرفق في العبادة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين
مدير إدارة البحوث والثقافة المساعد
بالأزهر الشريف

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن رجل من باهلة، قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة مرة، فقال: من أنت؟ قلت: أما تعرفنى؟ قال: ومن أنت؟ قلت: أنا الباهلى الذى أتيتك عام أول، فقال: إنك أتيتنى وجسمك ولونك وهيئتك حسنة، فما بلغ بك ما أرى؟ قلت: والله ما أفطرت بعدك إلا ليلا. قال: من أمرك أن تعذب نفسك؟ من أمرك أن تعذب نفسك؟ ثلاث مرات؛ صُمْ شهر الصبر، قلت: إنى أجد قوة، وإنى أحب أن تزيدنى، قال: صم يوما من الشهر، قلت: إنى أجد قوة، وإنى أحب أن تزيدنى، قال: فيومين من الشهر، قلت: إنى أجد قوة، وإنى أحب أن تزيدنى، قال: ثلاثة أيام من الشهر، قال: وألح عند الرابعة، فما كاد، فقلت: إنى أجد قوة، وإنى أحب أن تزيدنى، قال: صم الحرم وأفطر».

من هذا الحديث نعلم أن الله تعالى نهى عن الإثقال فى الطاعات، والمغالاة فيها، وأمر بالرفق واليسر فى العمل بأحكام الدين، وحث على ألا يفعل الانسان ما فعله ذلك الرجل الباهلى، وما كان يفعله كثير من العباد والمتنسكين الذين كانوا يحملون أنفسهم من العبادة ما يضر بأجسادهم، ويشق على نفوسهم، فهؤلاء وإن كانوا أهل صدق وجد واجتهاد، إلا أنه ينبغى ألا يقتدى بهم فى هذا الإفراط والتشدد، وإنما يقتدى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فان خير الهدى هديه، وقد كان ينهى عن التعسير، ويأمر بالتيسير، ودينه الذى بعث به يسر، وكان يقول: خير دينكم أيسره، وكان أكثر تطوعه صلى الله عليه وسلم بين

القلوب وطهارتها ، وسلامتها ، وقوة تعلقها بالله ، خشية له ، ومحبة ، وإجلالا ، وتعظيما ، ورغبة فيما عنده ، وزهدا فى الدنيا .

سئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز بعد وفاته عن عمله ، فقالت : والله ماكان أكثر الناس صلاة ، ولا أكثرهم صياما ، ولكن والله ما رأيت أحدا أخوف لله من عمر ! لقد كان يذكر الله فى فراشه ، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف ، حتى نقول : ليصبحن الناس ولا خليفة لهم . وقال بعض السلف : مابلغ من بلغ عندنا بكثرة صلاة ولا صيام ، ولكن بسخاوة النفوس ، وسلامة الصدور ، والنصح للأمة .

فالنبى صلى الله عليه وسلم لما رأى ذلك الرجل الباهلى ، وقد نهكه الصوم ، وغير هيئته ، وأضر به فى جسده ، أمره أولا أن يقتصر على صيام شهر الصبر ، وهو شهر رمضان ، فلما طلب منه أن يزيده من الصيام ، وأن يأمره بالتطوع ، قال له : صم يوما من الشهر ، فاستزاده ، فقال له : صم يومين ، فاستزاده ، فقال له : صم ثلاثة أيام ، فلما ألح عليه عند الثالثة ، ماكاد يزيده على الثلاثة أيام من الشهر .

وكذلك فعل النبى صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ فى صحيح مسلم عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : صم يوما — يعنى من الشهر — ولك أجر ما بقى . قال : إنى أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم يومين ، ولك أجر ما بقى ، قال : إنى أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم ثلاثة أيام ، ولك أجر ما بقى .

ووجه ذلك أن الصيام يضاعف مالا يضاعف غيره من الأعمال ، ولا يعلم منتهى مضاعفته إلا الله تعالى ، وكلما قوى الاخلاص فيه ، وإخفاؤه وتنزيهه من المحرمات والمكروهات ، كثرت مضاعفته ، فلا يستبعد أن يصوم الرجل يوما من الشهر ، فيضاعف له بثواب ثلاثين يوما ، فيكتب له صيام الشهر كله ، وكذلك إذا صام يومين من الشهر ، فأما إذا صام ثلاثة أيام فالأمر ظاهر ، لأن الحسنة بعشر أمثالها ، فاليوم بعشرة أيام .

وحديث الباهلى هذا ، يدل على أن التكلف فى العبادة بما يشق على النفس ، ويتأذى به الجسم ، غير مأمور به شرعا ؛ ولذلك قال له النبى صلى الله عليه وسلم : من أمرك أن تعذب نفسك ؟ وأعادها عليه ثلاث مرات .

وهذا كما قاله لمن رآه يمشى فى الحج ، وقد أجهد نفسه : إن الله لغنى عن تعذيب هذا نفسه ، فمروه فليركب .

وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص ، حيث كان يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويختم القرآن فى كل ليلة ، ولا ينام مع أهله ، فأمره أن يصوم ويفطر ، ويقرأ القرآن فى كل سبع ، وقال له : « إن لنفسك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا ، فآت كل ذى حق حقه » .

ولما بلغه أن عثمان بن مظعون أراد التبتل قال له : أترغب عن سنتى ؟ قال : لا ، ولكن سنتك أريد ، قال : فإنى أنام وأصلى ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله يا عثمان ، فإن لأهلك عليك حقا ، وإن لضيفك عليك حقا ، وإن لنفسك عليك حقا ، فصم وأفطر ، وصل ونم .

وعزم جماعة من الصحابة أن يتبتلوا ، فجلسوا فى البيوت ، واعتزلوا النساء ، وحرموا طيبات الطعام واللباس ، وهموا بالاختصاء ، وأجمعوا لقيام الليل ، وصيام النهار ، فنزل فيهم : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » .

وقد ورد النهى عن صيام الدهر ، والتشديد فيه . وهذا كله يدل على أن أفضل صيام التطوع هو ألا يضعف البدن ، حتى يعجز عما هو أفضل منه من القيام بحقوق الله تعالى ، أو حقوق عباده اللازمة ، فإن أضعف عن شىء من ذلك مما هو أفضل منه ، كان تركه أفضل . فالأول مثل أن يضعف صيام التطوع عن الصلاة ، أو عن الذكر ، أو عن العلم ؛ والثانى مثل أن يضعف عن الكسب للعيال ، أو القيام بحقوق الزوجات ، فيكون تركه أفضل .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، يتوسط فى إعطاء نفسه حقها ، ويعدل فيها غاية العدل ، فيصوم ويفطر ، ويقوم وينام ، ويأكل ما يجد من الطيبات كالحلواء والعسل ، ولحم الدجاج ، وتارة يجوع حتى يربط على بطنه الحجر ، وقال : عرض علىّ ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا ، يارب ، ولكن أجوع يوما ، وأشبع يوما ، فإذا جعت تضرعت اليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك

وشكرتك . فاختار صلى الله عليه وسلم أعدل الأحوال ، ليجمع بين مقامات الشكر والصبر والرضا .

وقد ورد : « اكلفوا من العمل ما تطيقون ، فو الله لا يمل الله حتى تملوا » . وورد : « أحب العمل الى الله أدومه وإن قل » . فمن عمل عملا يقوى عليه بدنه فى طول عمره فى قوته وضعفه ، استقام سيره ؛ ومن تحمل ما لا يطيق ، فانه قد يحدث له مرض يمنعه من العمل بالكلية ، وقد يسأم ويضجر ، فيقطع العمل ، فيصير كالمنبت ، لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى .

وقد ندم عبد الله بن عمرو بن العاص فى آخرة أمره حين عجز عن الاستمرار على ما أخذ بنفسه من قيام الليل وصيام النهار والإفراط فى العبادة وقال : ليتنى قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان رجل فى زمن التابعين ، يصوم ويواصل ، حتى عجز عن القيام ، وكان يصلى الفجر جالسا ، فأنكروا ذلك عليه ، حتى قال عمرو بن ميمون : لو أدرك هذا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لرجموه .

وكان ابن مسعود يقل صيام التطوع ، ويقول : إنه يضعفنى عن قراءة القرآن ، وقراءة القرآن أحب الىّ .

وأحرم رجل من الكوفة ، فقدم مكة ، وقد أصابه الجهد ، فرآه عمر ابن الخطاب ، وهو سىء الهيئة : فأخذ عمر بيده ، وجعل يدور به الحلق ، ويقول للناس : انظروا الى ما يصنع هذا بنفسه ، وقد وسع الله عليه ! .

ولعل السر فى مطالبة الاسلام (بالرفق فى العبادة) والاعتدال فى أعمال التطوع واضح كل الوضوح ، فان الله تعالى خلق الانسان محتاجا الى ما يقوم به بدنه من مأكل ومشرب وملبس ، وأباح له من ذلك كله ما هو طيب حلال تقوى به النفس ، ويصح به الجسم ، ويتعاونان على طاعة الله ؛ وحرم عليه ما هو ضار خبيث ، يوجب للنفس طغيانها وقسوتها وغفلتها وأشرها وبطرها ؛ فمن أطاع نفسه فى تناول ما تشتهيه مما حرمه الله عليه ، فقد تعدى وظلم نفسه ، ومن منعها حقها من المباح حتى تضررت ، فقد ظلمها ومنعها حقها ؛ فمن تكلف من التطوع ما تضرر به فى جسمه ، كما فعل ذلك الباهلى ، أو ما يمنع به حقا واجبا عليه ،

كما فعل عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره ممن عزم على ترك المباحات فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فانه ينهى عن ذلك ؛ ومن احتمل بدنه ذلك ، ولم يمنعه من حق واجب عليه ، لم ينه ، إلا أن يمنعه عما هو أفضل ، فانه يرشد الى عمل الأفضل . وأحوال الناس تختلف فيما تحمله أبدانهم ، وتتقبله نفوسهم ، فيرشد كل واحد الى ما يناسب حالته .

وهذا كله يدل على سماحة الاسلام وسهولة أحكامه ، وما أصدق ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

كما يدل على شفقة الرسول صلى الله عليه وسلم ورحمته بالمؤمنين ، إذ كان لا يترك فرصة إلا تعهدهم فيها بالنصح والإرشاد ، وتوجيههم الى ما فيه خيرهم وصلاحهم فى دينهم ودنياهم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

طلب الحوائج

قال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج فى غير حينها ، ولا تطلبوها من غير أهلها ، فان الحوائج تطلب بالرجاء ، وتدرك بالنضاء .

وقال : مفتاح نجح الحاجة الصبر على طول المدة ، ومغلاقها اعتراض الكسل دونها . وقد جاء ذلك فى الشعر فقال شاعر :

إنى رأيت وفى الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلّ من جد فى أمر يحاوله ... فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال حكيم : لا تطلب حاجتك من كذاب ، فإن يقربها بالقول ويبعدها بالفعل ؛ ولا من أحمق ، فإن يريد نفعك فيضرك .

وقال شبيب بن شبة : إنى لأعرف أمرا لا يتلاقى به إنسانان إلا وجب به النجح بينهما . فقيل له : وما ذاك ؟ قال : العقل ، فان العاقل لايسأل مالا يمكن ، ولا يرد عما يمكن .

تحقيقات حول عقيدة ابن رشد

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

رأى ميرين :

استند هذا العالم فى حكمه على ابن رشد إلى نصوص كتاب « تهافت التهافت » فانتهى به بحثه إلى أن ابن رشد لم يبذل جهدا مخلصا فى التوفيق بين الفلسفة والدين فحسب ، بل إنه فى بعض المسائل الأساسية قد أخضع الفلسفة للدين ، والعقل للعقيدة ، فكان الدور الذى منح الفلسفة تمثيله هو دور شرح الحقائق الآتية عن طريق الوحى ، وفى الدائرة التى حددها الدين . وليس هذا النهج من مبتدعات ابن رشد ، بل هو مألوف عند جميع فلاسفة العرب ، ولكنه هو فقط أكثر ظهورا فى فلسفة ابن رشد . فمثلا نحن نشاهد ابن سينا ينغمس فى نوع من التنسك المظلم الذى لا يفهمه إلا تلاميذه كلما اصطدم بمشكلة لا تتفق مع رأى القرآن ؛ أما ابن رشد فقد ذهب الى ما هو أبعد من هذا حيث أعلن مثلا بإزاء مسألة الحياة الأخرى أنه يجب ترك هذه المسألة ، وأنه — إلى أن يجد لها العقل حلا يتفق مع القرآن — يعد الخروج فيها عن حدود الإيضاح القرآنى ، أو الارتياب فيه ، ضربا من الإلحاد . ومن هذا يتبين أننا إذا تعقبنا الفلسفة العربية الى آخر خطواتها ، ألفيناها دائما خاضعة للدين [1] .

ونحن لا نحسب أننا فى حاجة إلى التنبيه على خطأ هذا العالم بعد الذى أسلفناه حين عرضنا لفلاسفة الإسلام من محاولاتهم المغالية فى إخضاع الدين للفلسفة الإغريقية وجعلها هى المركز الرئيسى الذى يجب أن يجذب إليه النصوص القرآنية ، وما ذكرناه من آرائهم التى تثبت فى وضوح أنهم كانوا يقدمون العقل

---

(١) انظر مجلة « الموزيشون » البلجيكية سنة ١٨٨٨ - ١٨٨٩ تحت عنوان « دراسات فى فلسفة ابن رشد » .

على كل شيء إلى حد حمل الأستاذ « كارادى فو » على أن يعلن أنهم كانوا يجعلون الوحى فى الدرجة الثانية بعد الفلسفة .

ميجيل أزين :

بدأ هـــذا الباحث دراسته بترجمة فصول من كتب : « تهافت التهافت » و « فصل المقـال » و « كشف الأدلة » الى اللغة الأسبانية ، ثم عقد بينها وبين نصوص القديس توماس الاكوينى موازنة دقيقة خرج منها بأن رينان قـد غالى فى زعمه أن ابن رشـد كان عقليا محضا ، وأن الحقيقة الناصعة هى أنه خصم لدود للتعقل الحـر ، وأن مذهبه فى محاولاته التوفيق بين الفلسفة والدين يشبه مذهب القديس توماس ، إذ هو يرمى إلى إثبات أن العقل — وليست الفلسفة أو البحث عن جواهر الأشياء بالبرهان إلا من منتجاته — يقود إلى عدد كبير من الحقائق ولـكنه لا يقود إليها جميعها . ولهذا لم يكن بد من الوحى الإلهى أولاً لـكى يصور الحقائق الضرورية للنجاة أمام أخيلة الجماهير فى صـورة رمزية فاتنة ؛ ثانيا لـكى يلهم الجميعَ حتى الفلاسفة بعض الحقائق لمـا بعد الطبيعية التى يستطيع العقل أن يدرك وجودها لا معانيها . وبما أن مصدر العقل والوحى واحد ، فمن غير الممكن أن يتناقضا ، بل يجب أن يتعاونا ، غير أنه لمـا كان الوحى يفوق العقـل ، فقد وجب فى حالة التعارض الظاهر أن يخضع الثانى للأول .

وأخيرا ينتهى « أزين » فى بحثه إلى أن إخلاص ابن رشـد الدينى ينبغى أن يوضع فوق كل ريبة ، وأنه فى جميع مهاجماته التى وجهها إلى المتكلمين لم يتعد حد السنة النقية [1] .

ليون جوتييه :

لم يقع هـذا العالم فيما وقع فيه أسلافه من التسرع فى الحـكم على ابن رشـد ، وإنما أصدر رأيه فيه بعد روية وتمعن ، وهو يتلخص فى أن الباحث — لكى يدرك

---

(١) انظر المقـال المنون « رشدية القديس توماس الالهية » المنشورة فى الـكتاب الذى عنوانه : « إجلال إلى دون فرانشيسكوكوديرا » .

الأسباب الحقيقية التى حملت ابن رشد على التناقض الظاهرى الذى يشاهده الناظر فى فلسفته — يجب عليه أن يعرف أن هـذا الفيلسوف قد قسم بنى الإنسان إلى ثلاث فصائل ، وأبان نوع المعرفة الذى يجب أن يقدم إلى كل فصيلة [١] .

فأما أفـراد الفصيلة الأولى فهم الفـلاسفة أو ذوو البراهين العقلية الذين لا يقنعون بدون الحجة القاطعة ، والمعرفة التى يجب أن تقدم الى هؤلاء هى المعرفة العقلية البحتة ، أى أنه لا يصح أن يخفى عليهم شىء ألبتة ، بل ينبغى أن يباح لهم تحليل النصوص المتشابهة أو المعقدة من الكتب الدينية ، إذ لا يجوز أن يحتجب عنهم سر ولا أن تقف فى طريقهم معجزة ، لأن الأسرار والمعجزات ليست إلا بعض الرموز المقـدرة للجماهير ولا تتصل بالمعرفة الفلسفية التى لا تتعلق إلا بالحجج العقلية .

وأما أفـراد الفصيلة الثانية فهم رجال الدين الذين يعتمدون على الأقاويـل الجدلية ، وهؤلاء قادرون على أن يتبينوا المصاعب الموجودة فى النصوص الدينية فحسب ، ولكنهم عاجزون كل العجز عن فهم المعانى الحقيقية لهـذه النصوص . ويجب على الفلاسفة ألا يقدموا اليهم من المعرفة إلا النوع الأوسط الذى يتلاءم مع عقلياتهم ، وهو التأمل المؤلف من أجزاء عقلية وأخرى دينية .

وأما أفـراد الفصيلة الثالثة فهم العامة الذين تستهويهم الأساليب الخطابية ، وهؤلاء عاجزون عن كل شىء ولا يصح أن يقدم اليهم أى تأويل ، بل يجب أن يأخـذوا بحرفية النصوص ، وأن يؤمنوا بجميع الرمـوز والتمثيلات دون بحث ولا تأويل .

ومن أوضح الأدلة على صحة هـذا التقسيم هو ذلك القول المأثور : « الله فى السماء » . فإن العامة يعتقدون أنه يقطن السماء كما يقطنون منازلهم ، ورجال الدين يؤولون هذه الكلمة بأن الله فـوق النقص والضعف الإنسانيين ، ولكنهم لكى

---

(١) تبع ابن رشد بلا ريب وهذا تقسيم أرسطو الحجج إلى برهانية وجدلية وخطابية وشعرية وسوفسطائية ثم اطرح الرابعة والخامسة لافراط أولاهما فى الخيال ، وفساد ثانيتهما ، وأبقى الثلاث الأول ، وقسم الانسانية ومعارفها على غرارها .

يوضحوا تأويلهم يقولون : « إن الله فى كل مكان » . أما الفيلسوف فإنه يعلم أن قول رجال الدين : إن الله فى كل مكان ، يساوى قول العامة : إنه فى السماء ، لأنه فى الحالتين يكون جسما يشغل قدرا من الفراغ قل أو كثر ، وهو لهذا يقول : « إن الإله ليس فى أى مكان ، وإنما هو موجود فى ذاته ، وإن تأثيره هو الذى يشمل كل مكان » .

ومن هذا يتبين أن الفلاسفة يجب عليهم أن يفلسفوا سرا ، وأن يضنوا بمعارفهم على أهل الطبقتين : الوسطى والدنيا ؛ وألا يبوحوا لهم بشىء من أسرار حكمتهم ؛ كما يجب على رجال الدين ألا يكشفوا النقاب للعامة عن شىء من معارفهم حتى لا يعرض العقل لهدم الدين من النفوس التى هو ضرورى لها .

ومن هذا أيضا يبين أن الفلسفة والدين ليسا إلا تعبيرين عن حقيقة واحدة تقضى الحكمة ألا يستعمل أحدهما فى موضع الآخر ؛ الأول عقلى واضح ، والثانى رمزى غامض . وهذا هو معنى التوفيق الذى حاول ابن رشد تثبيته بين الحكمة والشريعة ، فقرر أنهما تستطيعان السير جنبا الى جنب كأختين متحابتين مادامتا متجهتين الى صنفين مختلفين من الناس . ولو أن المعتزلة والأشعرية قد فهموا هذا لما كانوا مصدر تشكيك الناس فى دينهم كما فعلوا حين حسبوا أنه يجب أن يدعى الناس جميعا على نهج واحد وبدون تمييز بينهم الى معرفة الإله وإلى الحقائق الدينية ، وباحوا للجميع بالتأويلات التى ظنوا أنها حقيقية . ولما لم يكونوا متفقين فيما بينهم فقد أنشئوا مذاهب وشيعا كان همها الأول أن تتبادل التهم بالكفر والزندقة ، وفى الواقع أن كل تلك الصدوع الدينية التى وقعت فى الاسلام تولدت من هذه التأويلات المختلفة التى لا تتفق مع الفلاسفة ولا مع العامة .

بقى الآن أن نعرف كيف تصاغ الحقائق الفلسفية فى عبارات رمزية تتفق مع عقليات الجماهير ، إذ أن هذه الصياغة لا تحدث فى نفوس الفلاسفة المخصصة بالمجردات ، ولا فى نفوس العامة العاجزة ، وإنما هى تحدث فى نفوس الأنبياء الذين بعد أن يفيض عليهم العقل الايجابى — كما يفيض على الفلاسفة — إدراكات عقلية برهانية يعود فيرن فى أخيلتهم رنينا يجعلهم قادرين على تحويل الأفكار النقية إلى تمثيلات رمزية ، وهذا دليل قاطع على أن النبى هو وحده الانسان الكامل

الأسمى من الفيلسوف ، وهو الذى تجتمع فى نفسه الحكمة مع الدين ، وهو الصلة الحية بين العقل والعقيدة .

وأحسب أنه لم يبق بعد ذلك موضع للقول بأن ابن رشد ليس عقليا خالصا ؛ أو بأنه أخضع الفلسفة للعقيدة كما زعم أصحاب هذا الرأى ؛ وإنما الحقيقة التى لا ريب فيها هى أن هذا الفيلسوف لم يخط كلمة واحدة تشهد بخضوع الفلسفة للدين ، بل بالعكس قد أعلن أن الفلسفة والديانة ليستا متساويتين ؛ فموضوع الأولى من الثانية هو موضع الصفوة من الشعب ، والفكرة النقية من رمزها المادى ؛ وهذا هو الذى حمله على أن يؤول النصوص الدينية فى حالة اختلافها مع الفلسفة ليتحقق التوفيق بينهما (١) .

هذا هو موجز رأى الأستاذ ليون جوتييه فى ابن رشد وآرائه بإزاء الدين ، ولا أرانى فى حاجة إلى التصريح بأنه رأى ثاقب دقيق يحمل فى طياته برهان عمق كاتبه وفهمه للموضوع الذى عالجه ، وقدرته على التغلغل فى غيابات الفلسفة الرشدية بهيئة لم يسبقه إليها أحد من الباحثين ؟

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

سياسة الملك

قال الوليد بن عبد الملك لأبيه : يا أبت ما السياسة ؟ فأجابه : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها واحتمالها فوات الضائع .

وكتب أبرويز ملك الفرس إلى ابنه شيرويه : اعلم أن كلمة منك تسفك دماء ، وأخرى تحقن دماء ، وأن سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه ، وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه ؛ وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك . فاحترس فى غضبك من قولك أن يخطىء ، ومن لونك أن يتغير ، ومن جسدك أن يجنح ؛ فان الملوك تعاقب حذرا ، وتعفو حلما . واعلم أنك تجل عن الغضب ، وأن ملكك يصغر عن رضاك ، فقدر لسخطك من العقاب ، كما تقدر لرضاك من الثواب .

(1) L. Ganthier. la théorie d'ibn Rochd sur les rapports de la religoin et la raison, p. 74 - 78, 84 - 85, 108 sq.

أسباب تاخر المسلمين

المؤامرة الثانية

قتل عثمان رضى الله عنه

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

وصلت مع القارىء الكريم فى مقالى السابق تحت هذا العنوان الى نتيجة المؤامرة الأولى ، وهى اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان المتؤامرون يظنون أنه سينفرط عقد الجامعة الإسلامية بهذا الحادث الفظيع ، فيتم لهم ما أرادوا من الشر والوقيعة . ولكن ساء ظنهم ، وخاب أملهم ، و « سُقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا ، حين رأوا كلمة المسلمين مجتمعة تحت راية الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه . عند ذلك توارَوا تحت ستار من المكر والخداع برياسة عبد الله بن سبأ [1] اليهودى ، وعمدوا إلى إثارة الفتنة والدس بين المسلمين ، واستعملوا لذلك كل دهاء وكياسة ، حتى أوقعوا بين المسلمين وخليفتهم ، وكانت النتيجة أن قتل رضى الله عنه فى داره والمصحف بين يديه ! وبذلك قوى عزمهم على تنفيذ جميع مؤامراتهم المدبرة ، فأشعلوا نار الخلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، وانتهت تلك الفتن بقتل الإمام على

---

(١) وكان يلقب بابن السوداء ، لسواد أمه . أسلم عن خبث نية وفساد طوية وكيد للاسلام ، وهو القائل بأن عليا رضى الله عنه وصى محمد عليه السلام وقد غصبه هذا الحق من تولى الخلافة قبله من الخلفاء فالواجب على المسلمين أن يقوموا لاعادة الحق الى أهله . وقد تبعه كثير من ضعاف الايمان وأهل الأهواء على هذا الرأى الفاسد . وكان ظهوره بالبصرة سنة ٣٤ هـ ثم طرد منها فذهب الى الكوفة ثم الى الحجاز ثم الى الشام فطرد من الجميع ، فذهب الى مصر وبها طاب له المقام ، فأخذ ينشر بين المصريين آراءه التى كانت بذورا للفتنة « التى تموج كموج البحر » كما سبق بيانه فى نهاية المقال السابق .

ابن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد شجعان العرب فى الإسلام . قتله الخوارج من أعضاء الجماعات السرية التى أوضحت أمرها آنفا . وهـــذه هى (المؤامرة الثالثة) .

وكان قصد المتآمرين بهذه المؤامرة أن يقضوا على سلطان العرب فى جميع بقاع الإسلام بقتل أساطينهم فى مصر والشام والعراق ، وهم على ومعاوية وعمرو ابن العاص ؛ وبذا تقع الفوضى ويحدث الاضطراب فى صفوف المسلمين . ولما لم يتم لهم جميع ما أملوا من الفساد والإفساد ، ركزوا جهودهم سرا فى الإيقاع بالحسين ابن على رضى الله عنهما ، حتى كانت (المؤامرة الرابعة) التى انتهت بقتله رضى الله عنه ، وتشتيت آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فى كثير من بلدان الإسلام !

ولست الآن فى مقام مؤرخ يسجل الحوادث الدامية التى وقعت فى تاريخ الإسلام ، ولكنى بصدد بيان أن تلك الفواجع الأليمة ، والخطوب الجسيمة لم يكن مصدرها العرب أنفسهم كما يدعى ذلك أعداء العرب من مستشرق « أوروبا » ؛ وإنما كان مدبر أمرها ، ومطير شررها وموقد نارها بين العرب هم أولئك الفئام من مدعى الإسلام وليسوا منه ولا من العروبة فى شىء ، الذين نكب بهم الإسلام نكبة لم يرتفع منها رأسه الى وقتنا هـــذا ، والذين تربصوا الدوائر بخلفاء بنى أمية ، وأوقدوا نار العداوة بينهم وبين بنى العباس ، ثم طوّحوا ببنى العباس فى مهاوى الردى والدماء ، ثم خلفتهم ذريتهم لتعيث الفساد فى دويلات الإسلام بمصر والعراق والشام ، بل وبلاد الأندلس العربية التى كانت إحدى جنات الدنيا ، وإحدى عجائبها التاريخية .

وإن تعجب أيها القارىء فعجب أن أمر تلك الجماعات لم يقف عند هذا الحد من الضرر البليغ ، بل تعـــداه إلى ضرر أبلغ ، وجُرم أفحش ، وطوية أسوأ من كل ما ذكر ؛ ألا وهى التشكيك فى الدين .

وذلك أنهم لما رأوا أن تقلص ظل السلطان العربى لم يثمر الثمرة المرجوة لهم ، وأن دعائم الاسلام لا تزال ثابتة بالقرآن وبسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لما رأوا ذلك الذى غاظهم عمدوا إلى إثارة الشك فى الدين بين ضعفاء الإيمان من المسلمين ، ففسروا القرآن بحسب أهوائهم تفسيرا باطنيا باطلا

لا تؤخذ معانيه من ألفاظه العربية ! واخترعوا مسائل الجدل فى أصول الدين ، كالقول بالتجسيم ، وبالجبر ، وبوجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى .

وكذبوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضعوا آلاف الأحاديث المعطلة لمبادىء الإسلام ، أو الموقعة فى الضلال ، أو المفسدة للأخلاق ، ونسبوها الى الرسول عليه السلام زورا وبهتانا [1] ! !

وزادوا الطين بلة بتأليف الكتب فى بيان مثالب العرب وتعداد مساويهم وإسناد كل إفك ونقيصة وباطل اليهم ، من دون أن يكون لذلك ظل من الحقيقة والواقع ، حتى إن ابن خلدون المؤرخ المشهور تسمم بهذه الأفكار الخاطئة ، وتجنى على العرب ظلما فى فصلين عقدهما فى مقدمته التاريخية إذ يقول :

(فصل) فى أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب !

ثم يقول بعد ذلك :

(فصل) فى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك !

وقد كتب فى هذين الفصلين ما شاء له هواه ، وأملته عليه غريزته ، ناسيا أو متناسيا حضارة العرب فى الأندلس ذات الجنان الفيحاء ، والقصور الشماء ، والآداب والعلوم ! وغافلا أو متغافلا عن تلك الرزايا المجوسية والرومية التى انصبت على رؤوس حكام العرب ، والتى لو جعلت على شم الجبال لدكتها دكا ، وتركتها قاعا صفصفا [2] لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ! وكأنى بلسان حال العرب يقول :

صبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

فيا لله للعرب ، ثم يالله للمسلمين ! !

كلمة إنصاف :

على أن ما حدث من بعض الشراذم الضالة الشريرة لا يمنعنا أن نقر بالفضل ،

---

(١) ولكنا نحمد الله إذ تصدى لتمييز هذه الموضوعات رجال من علماء الحديث المخلصين أهل الرواية والدراية . رحمهم الله ورضى عنهم !

(٢) الصفصف : الأرض المستوية ، والعوج : الانخفاض ، والأمت : الارتفاع .

ونعترف بجميل الصنع لمن دخلوا فى الاسلام من غير العرب ، وهم الكثرة الكاثرة من المسلمين ، فقد خدموا الاسلام أجل خدمة سجلها التاريخ .

فأكثر مفسرى القرآن من هؤلاء الأعلام ، وجل حفاظ الحديث النبوى ورجال الرواية من هؤلاء ، وفطاحل اللغويين والنحاة وعلماء البلاغة والأدب من هؤلاء ، بل أستطيع أن أقول : لولا أولئك الأمناء الأعاظم ، من علماء الإسلام الأعاجم ، لاندرست هذه العلوم ، وأضحت فى خبر كان !

إلى هنا يلاحظ القارىء أنى أطنبت فى بيان السبب الأول من أسباب تأخر المسلمين ، إلا أنى أعتقد أنه السبب الرئيسى لهذا التأخر ، وكل ماعداه من الأسباب الأخرى مرده الى هذا السبب .

السبب الثانى — إهمال المسلمين العمل بروح الكتاب والسنة فيما دعوا اليه من الحث على الاتحاد والتعاون ونبذ العصبية الممقوتة ، والأخذ بأهداب العلم الدينى والدنيوى ، والجهاد فى سبيل الله . وهذا الإهمال داء قديم ظهر فى عصر بنى أمية ، ثم أخذ ينتشر بعد ذلك بين المسلمين انتشار النار فى الهشيم !

وكان يحمل جراثيم هذا المرض رجال من موالى الفرس والروم ، أمثال من عرضنا لذكرهم فى السبب الأول . ظهر هؤلاء للناس بمظهر التدين والطاعة والإخلاص لله ولرسوله ، وأخفوا بين ثنايا عباداتهم وطاعتهم سموم الأمراض الاجتماعية ، وشكوك العقائد الدينية ، يبثونها فى نفوس من شاءوا ، فى الوقت الذى شاءوا !

ومن عجيب أمر المسلمين أنهم لم يتنبهوا الى ما نبههم اليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه الصحيحة من صفات هؤلاء المارقين من الدين ، الذين يلبسون للناس جلود الضأن ، وقلوبهم كقلوب الذئاب . روى البخارى فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وعملكم مع عملهم ، ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم [1] يمرقون من الدين

(١) الحناجر : جمع حنجرة ، وهى طرف الحلقوم .

كما يمرق السهم من الرميّة [١] ، ينظر فى النصل [٢] فلا يرى شيئا ، وينظر فى القدح [٣] فلا يرى شيئا ، وينظر فى الريش [٤] فلا يرى شيئا ، ويتمارى فى الفوق [٥] » . ومعنى الحديث أن كل واحد من هؤلاء يتظاهر بالصلاح والتقوى وليس فى قلبه منهما شىء ، وأنه يدخل فى الإسلام ويخرج منه لا يعلق بقلبه منه شىء ، كما يخرج السهم من الصيد المرمى بقوة الرمى لا يتعلق به ولا بشىء من أجزائه دم ولا غيره ، حتى إن الرامى يتمارى ويشك هل فى الفوق شىء ؟ مع أنه ليس بموضع للشك . وهذا الحديث ونحوه من أصدق الدلائل على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهو ينطبق تمام الانطباق على غلاة الخوارج والرافضة والباطنية ، الذين نكب بهم الاسلام فى عصر على كرم الله وجهه ، وفيما بعده من عصور الإسلام إلى يومنا هذا !

السبب الثالث — موجة الإلحاد التى طغت على العقائد فى العصور الأخيرة ، فأغرقتها فى بحر لجى من الشك والحيرة ، فكان من أثر ذلك أن ضعف اعتقاد الناس فى البعث والنشور والعرض والحساب ، وفى الثواب والعقاب الأخرويين ، أى الجنة والنار ، وترتب على هذا الأثر أن قلت الرغبة فى الخير بين المسلمين ، وكثرت نوازع الشر فيما بينهم . وهذه نتيجة طبيعية لمن لا يرجو ثوابا ، ولا يخشى عقابا !

ونظرة فاحصة إلى حال المسلمين الأولين تريك صحة ما أقول :

آمن السابقون الأولون إيمانا صادقا بما جاء به الرسول عليه السلام ، فكان من أثره أن باعوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله بأن لهم الجنة ، فقاتلوا الأعداء ، وبذلوا الأموال ، وجاهدوا حتى انتصروا ، وكانت لهم الصولة والغلبة والدولة مع قلة عددهم وعُددهم . وذلك أثر الإيمان الصادق .

أما المسلمون اللاحقون فهم مع كثرة عددهم ووفرة أموالهم أذلاء فى ديارهم ،

---

(١) الصيد .

(٢) حديد السهم .

(٣) القدح بكسر القاف : السهم قبل أن يراش .

(٤) ما يجعله حوالى الفوق مما يشبه الريش .

(٥) الفوق بضم الفاء : موضع الوتر من السهم .

مستسلمون لأعدائهم ، بخلاء بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والوطن ، وهذا أثر إيمانهم . والبون شاسع بين الأثرين كما ترى .

السبب الرابع — انصراف الكثير من علماء الإسلام عن النظر والتفكير فى العلوم الكونية ، واشتغالهم بعلوم الدين واللغة والأدب . والذى أعنيه بهذا الكلام أنه كان يجب أن يكون فى عصر المجتهدين من علماء الدين كأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل مجتهدون آخرون فى استنباط المعادن من بطون المناجم ، والبحث فى خواص الأجسام وقوانين الطبيعة للوصول إلى الكشف والاختراع ؛ وأن يقوم بجانب علماء اللغة والأدب كالخليل وسيبويه ، والفراء والأخفش ، والجاحظ وعبد القاهر ، والسكاكى والسعد والسيد ، والأصفهانى صاحب الأغانى ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ـ علماء آخرون من طراز آخر ، يبحثون فى تنظيم الجيوش الإسلامية ، وتزويدها بآخر ما وصلت إليه يد الاختراع من معدات الدفاع والحرب ؛ وآخرون يبحثون فى اختراع وسائل الراحة المختلفة ، وشئون الحياة العامة كالصحة والزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك مما يشاهد فى غير بلاد العرب والإسلام . وهاهنا أقول : إن جهلنا بعلوم الدنيا كان سبباً جوهريا فى تأخرنا وانحطاطنا فى شئون الدنيا وفى شئون الدين ! . ومما يثير فى النفس أعظم العجب أن دستور العرب — وهو القرآن الكريم — تعرض فى كثير من المناسبات الى الحث على الأخذ بأسباب هـذه العلوم ، على حين أن الكتب السماوية السابقة لم تتعرض إلى شىء من ذلك ، بل لم تشر إليه أية إشارة .

السبب الخامس — تطرقُ اليأس الى نفوس العرب والمسلمين من إصلاح الحال . وقد نشأ عن هذا السبب هذه المهلكات ؛ وهى :

(ا) الجبن وترك الجهاد ، لاعتقادهم ضعف أنفسهم وقوة عدوهم ، وأنه لابد منتصر عليهم . وهو داء فتاك بالأمم ، لأنه يضعف فيهم الروح المعنوية ، ويُطمع فيهم الأعداء . وقد حدث هذا فعلا .

(ب) البخل بالمال فى سبيل المشروعات الخيرية والوطنية ، لأنهم يخافون الفقر ، ولا يرجون صلاحا . وهذا عيب اجتماعى كبير ، لأنه يؤدى إلى

البطالة وضعف الإنتاج ، وهما وسائل الفقر . وقديما قيل : الناس من خوف الفقر فى فقر !

(ج) الاستسلام للخور وضعف العزيمة ، لاعتقادهم أن الأجانب الغربيين سبقوهم الى كل شيء ، وفاقوهم فى كل شيء . وهو داء يقتل روح النهوض والنشاط ، ويثبط الهمم عن كل نافع مفيد .

(د) عدم الثقة بالنفس فى الشئون الاقتصادية والعمرانية . وهذا منشؤه ضعف العزيمة ، لاعتقادهم بأن الأجنبي الأوروبى متقن عمله ، مجيد صناعته ، وأن الشرقى لا خطر له فى إتقان عمل ولا فى إجادة صنعة !

وهذا الداء الفتاك كان يروج له ويدعو إليه أول نهضة « أوروبا » مستشرقون مأجورون وشرقيون مفتونون ، مدللين على صحة دعاواهم المبهرجة بحال الشركات العربية ، التى كانت تؤلف ثم لا تلبث أن تنحل وتصفى .

وحقيقة الواقع أن هذه أوهام باطلة ، وأن فشل تلك الشركات كان منشؤه دسائس الأجانب وحيلهم الماكرة الغادرة ، التى أطاحت بكثير من مشروعات العرب فى بلاد الشرق .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ويدلك على صحة ما أقول شيئان :

الأول — أن اليابان دولة شرقية قصوى ؛ ولكن لما خلصت من دسائس هؤلاء ترقت فى زمن وجيز حتى فاقت بعض دول « أوروبا » حضارة وعلوما !

الثانى — أن الوعى الشرقى الوطنى لما تنبه أخيرا الى أساليب هؤلاء الدعاة وخداعهم أخذ ينتج النتائج المثمرة ، ويقوم بالمشروعات الجليلة النافعة ، فى نواحى الصناعة والمال والاقتصاد . وأوضح مثال لذلك « بنك مصر » وشركاته الناجحة الرابحة .

وعما قريب بمشيئة الله تعالى نرى كثيرا من الشركات العربية والإسلامية تنقب عن خيرات الأرض وكنوزها الطبيعية فى صحارى مصر ، وطرابلس ، وجزيرة العرب ، والعراق ، والشام ، والأناضول . ويومئذ يعرف الناعبون من غربان المستشرقين بأن الشرق تنبه ، ولم يعد لقمة سائغة فى حلوق المستعمرين .